

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

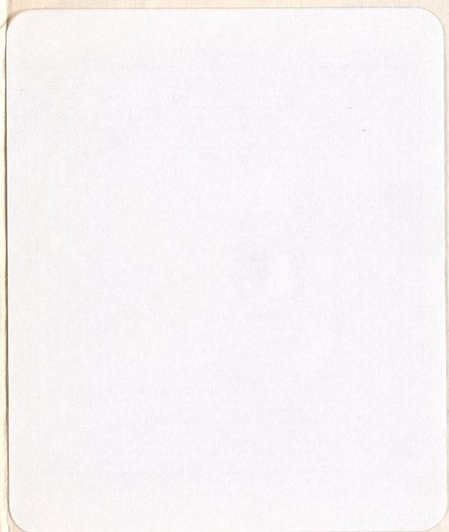


3 8534 01141 6116

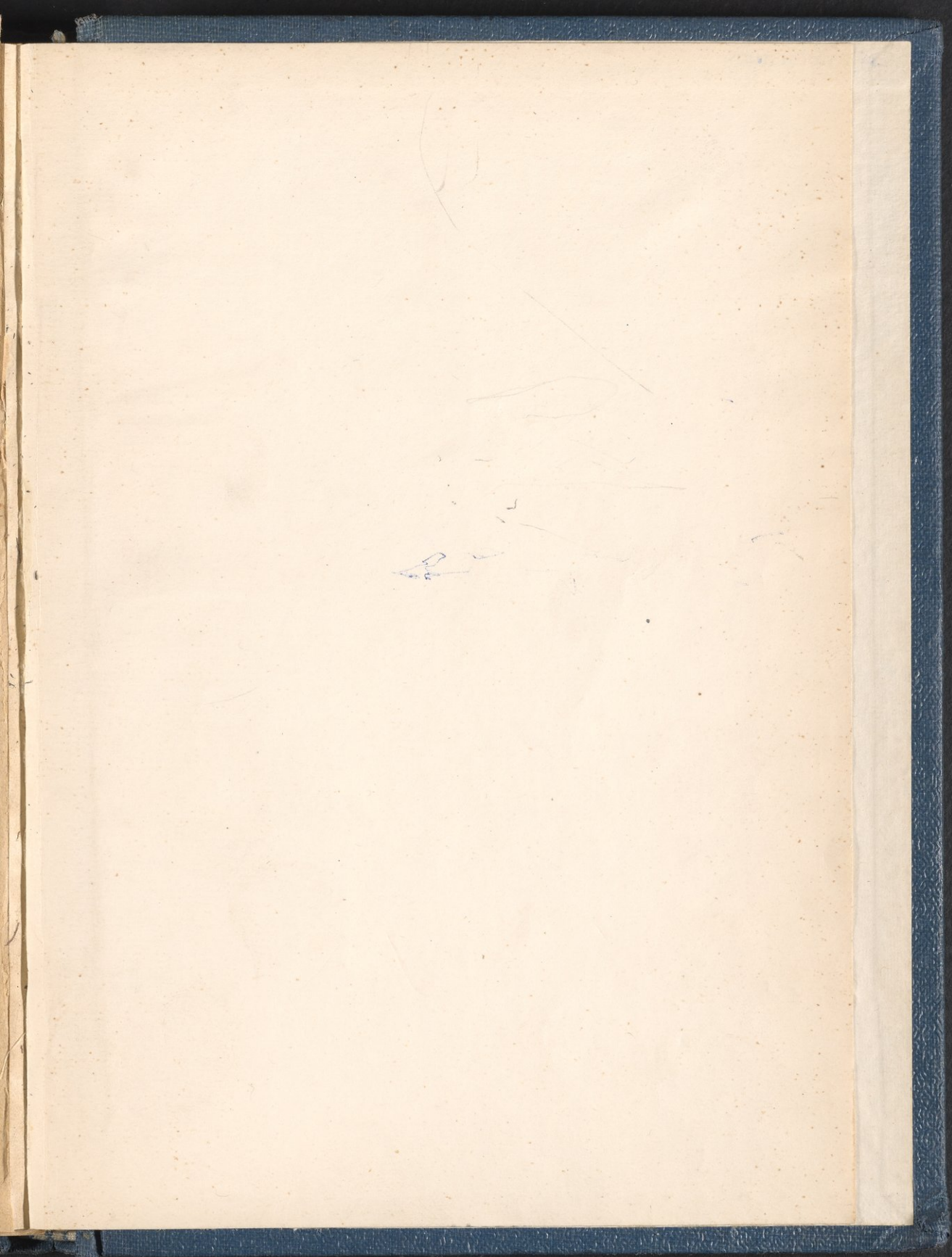
D
3
K
1

03-B1634

part 2-4-03



Homa



سامي الكيال

DS
39
K3
1943

الفكر العربي

بين ماضيه وحاضره

ومباحث عن

- ابن خلدون والعرب . كيف نعمل على إحياء ثقافتنا العربية القديمة .
- البلديات . عند العرب وطرق ممارستها في العصور الاسلامية الزاهرة .
- مصر والوحدة العربية . الشباب العربي والنزعات التجديدية . إيمان .



ملف من طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بص

١٩٤٣

95B
K184

٣ ٩٥
ل.س.ف

23058

الاهداء

إلى كل مفكر حر

إلى شباب العرب

إلى الناشئة المعقود عليها الامل في البعث القومي

أهدي هذه الصفحات .

سامي الكبيسي

فهرس

١	 الفكر العربي بين ماضيه وحاضره
١٣	 ابن خلدون والعرب
٢٧	 كيف نعمل على إحياء ثقافتنا العربية القديمة ؟
٤١	 البلديات عند العرب وطرق ممارستها في العصور الاسلامية الزاهرة
٥٧	 مصر والوحدة العربية
٧٥	 الشباب العربي والنزعات التجديدية
٩١	 إيمان

مقدمة

بقلم الدكتور طه حسين بك

في شهر ابريل من سنة ١٩٢٦ — إن صدقتني الذاكرة — كنت أسعى مع زوجي مقبلين إلى مكتب البريد في حلب أو منصرفين عنه لا أدري ، وإذا شاب يعبر إلينا الشارع عدواً حتى إذا بلغنا سأل ثم حيا ثم عرف نفسه ، وإذا هو سامي الكيالي .

رأى صورتي في بعض الصحف وقرأ ما كنت أنشر من الكتب والمقالات ، فلما رآني في وطنه لم يستطع إلا أن يكون عربياً كريماً . فلقى ضيفه أحسن لقاء ، وصاحبه خير مصاحبة ، ولم يفارقه حتى ودعه في القطار حين أزمع العودة إلى بيروت . وكان سامي الكيالي حفيماً بضيفه كما تعود العرب أن يكونوا دائماً ، ولكنه كان مع ذلك حفيماً بمدينته يحبها أشد الحب ويعجب بها أعظم الإعجاب ويريد أن يظهر ضيفه على كل ما فيها من المعاهد الحديثة والمعالم القديمة . وكان في أثناء هذا كله يتحدث عن علم ، ويتحدث عن حب ، ويتحدث عن إعجاب بالماضي وعن ثقة بالمستقبل ، فاستقرت منه في نفسي صورة محببة إلى أثيرة عندي . ولكنني لم أكُ أتحدث إليه ساعة أو بعض ساعة حتى

عرفت فيه خصلة أخرى هي التي وصلت ما بيننا من المودة وعطفت
قلب كل منا على صاحبه . فقد كان مؤثراً للتجديد ، حريصاً مع ذلك على
القديم ، معتدلاً في كلا الأمرين اعتدالاً يلائم ما اخترت لنفسى من
مذهب وما رسمت لها من منهج . وكان على ذلك شديد التتبع لما يكتب
في مصر ، يقرؤه مستقصياً ، ويفكر فيه ناقداً شديد التتبع لما يكتب في
الشرق العربي كله ، كثير الموازنة بين ما يقرأ . وكان يتحدث إلى عن
كتابنا وشعرائنا ، وعما كان يشور بيننا من الخصومة في الأدب والسياسة ،
فإذا هو يعلم من ذلك مثل ما أعلم . ثم يتحدث إلى عن كتاب الشرق
العربي وشعرائه ، وما كان يشور بينهم من جدل أو خلاف ، فإذا هو يعلم
من ذلك أكثر مما أعلم . وعدت إلى مصر والصورة التي استقرت
في نفسى من هذا الأديب هي خير ما عدت به من هذا القطر العزيز .
ثم اتصلت بيننا المودة فالتقينا وافترقنا ، وكتب كل منا إلى صاحبه ،
وما هي إلا أن يصبح سامى الكيالى كاتباً معروفاً وناشراً ممتازاً
بفضل هذه المجلة التي أصدرها « مجلة الحديث » التي جعلها ديواناً
دقيقاً للتفكير العربى منذ أعقاب الحرب الماضية إلى الآن . ولم
تقف الصداقة على ما استؤنف بينه وبينى من الود ، ولكنه كان
يتلقى أدباءنا المصريين بمثل ما تلقانى به من الكرم ، وكان يزور مصر
فنشغف بلقائه والاستماع منه والتحدث إليه . وإذا هو صديق
لأدبائنا جميعاً يعرف أكثرهم معرفة قريبة جداً ، ويعرف بعضهم

من آثاره المختلفة ، وإذا هو يعرف من حياتنا الأدبية دقائقها
وأسرارها ويتحدث عنها حديث المستقصى لما ظهر منها وما بطن .
وإذا تحدث الناس عنه الآن فإنما يتحدثون عن كاتب وقف جهده
- أو وقف صفوة جهده - على الاستقصاء والاستقراء ومراقبة التيارات
الفكرية في الشرق العربي وتسجيل الاتجاهات التي تتجهها هذه
التيارات . وهذه الفصول التي يسعدني أن أقدمها إلى القراء في مصر
ليست إلا مظهراً من مظاهر هذه العناية الخاصة ، وهي لن تعرف
سامي الكيالي إلى قرائنا لأنهم يعرفونه من قبل أن تذاع فيهم ، ولن
تحببه إليهم لأنهم يحبونه منذ قرءوا آثاره المختلفة فيما نشر من كتب
وما أذاع من فصول . وهذه الكلمة التي أقدم بها هذه الفصول ليست
في حقيقة الأمر إلا تحية صادقة من كاتب مصري إلى أديب صديق
للأدباء المصريين جميعاً . وأنا أقدم إليه هذه التحية لأن كتابه هذا
يطبع وينشر في بلدنا فهي أشبه بأن تكون ترحيباً به في زيارة تفضل
علينا بها من بعد .

ويزيدني اغتباطاً بظهور هذا الكتاب في مصر الآن أنه يظهر
في نفس الوقت الذي يشهد فيه الاتصال بين الأقطار العربية ،
وتقوى فيه فكرة التعاون والتقارب في الثقافة والتفكير ، ونجنى فيه
ثمراً طالما جاهدنا في سبيلها ، وطالما تمنينا أن يتاح لنا اجتناؤها في
يوم من الأيام . فقد كان سامي الكيالي يُتهم كما كنت أنا أيضاً أُتهم

بالإغراق في التجديد ، والانحراف عن العروبة وعمما ينبغي لأهلها من
التضامن والتعاون . والله يشهد ما أحب العروبة أحد كما أحببناها ، ولا
حرص على قوة العروبة ونهضتها أحد كما حرصنا عليها ، ولا جاهد في
دات العروبة أحد بالقلم واللسان كما جاهدنا نحن في ذاتها . ولكننا كنا
ومازلنا نكره التكثر والتزيد ، ونمضي في طريقنا غير حافلين بما نلقى من
عقاب ، ولا آبهين إلا بأن ترضى ضمائرنا وتطمئن قلوبنا إلى ما نحن
ماضون فيه أو مقدمون عليه .

وقد أراد الله أن تنجح جهودنا وجهود أصدقائنا الذين عملوا في
توجيه هذه النهضة الفكرية المعاصرة ، فأصبح التجديد الذي كنا
نلام فيه قليلاً لا يرضى طموح الشباب ولا يرضينا ، وأصبح التعاون
الثقافي والتضامن في الحياة العقلية هو الأساس الصالح المتين لكل
ما نأمله من تقارب في منافع السياسة والاقتصاد ، وأصبحت الطريق
ممهدة للذين يريدون أن يسلكوها ، وما أشك في أنهم كثيرون ،
وما أشك في أننا سنكون بينهم ، بل في طليعتهم ، ما امتدت لنا
أسباب الحياة والنشاط .

الفكر العربى

بين ماضيه وحاضره

« . . . إنه فى القرون التى سبقت ظهور محمد كان « الفكر العربى » أشبه بالنار تحت الرماد . فلما انكشف عنه الرماد بالفتح الاسلامى لمع لمعاناً لم يعهد أن فاقه فيه إلا الفكر اليونانى . وهو فى أسنى أدواره . فجاء الفكر العربى بشكل جديد ، وبقوة جديدة ، وعالج علاجاً شريفاً تنمية العلوم الصحيحة نظير ما عالج اليونانيون . ولقد كان اليونانى أباً للعلم فجاء العربى وحلّ محله فى هذه الأبوة . وكانت طريقة العربى هي أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبكل بساطة ، وأن يجليها بكل وضوح وبكل تدقيق ، غير تارك منها شيئاً فى ظل الإبهام . فهذه الخاصة التى جاءتنا نحن الأوربيين من اليونانيين وهي « نشدان الحقيقة » إنما جاءتنا عن طريق العرب ، ولم تسقط إلى أهل هذا العصر من اليونانيين »

خرج الفكر العربي من غمر الصحراء إلى معترك تتصارع فيه الآراء والمذاهب ، وكان — برغم فتوته — قوى الحيوية ، قوى الوهج ، وافر الذكاء . فلم ينزل إلى الميدان ، قبل أن يأخذ للأمر عدته . ، ووقف عند هذا الإشعاع الذي نزل على النبي الكريم محمد بن عبد الله ، فكان ينفى إلى ظلاله ، ويقبس من أنواره ، وما زال يدرج حتى شب ، وإذا به يتطلع إلى المشرق وإلى المغرب ، كسائح غريب يشوقه أن يرى كل شيء . . . وإذا هو إزاء ظلال جميلة ، ومفاتيح بدیعة ، ونقوش غريبة ، وأصداء حلوة عذبة مختلفة النغمات . نعم ، نشأ الفكر العربي أول نشأته في صحراوات جزيرة العرب يقول الشعر ويرسل الحكمة ويتأمل الأفلاك والنجوم ، وكان إلى شاعريته هذه ينحدر من الروحانيات إلى الماديات فيتجرع مع مَنْ حوله من الأمم ، كل أدواته هذه المعلومات التي تفرضها مواضع الحياة وظاهرات الكون ، يعيش في أفق ضيق وإطار محدود ، يهزج ويكرر نغماً واحداً ذا إيقاع راتب ، ويحيا حياة ملولة متشابهة الصور ، متشابهة الألوان . ولكن هل في وسع هذا المارد العجيب أن يعيش هذه الحياة المحدودة الآفاق وهو كتلة من عصب ووقدة من بركان ؟ . كلا . . . وكأنما الأقدار لحظت فيه هذه الحيوية العجيبة فأرادت أن

تنفس عن كبتة الخناق ، فما كاد العرب يفتتحون الدنيا القديمة
بمعجزتهم الكبرى حتى أطلَّ « الفكر العربي » من كُوْتِه المعتمة
على دنيا جديدة تشع بألوان الثقافات وفنون الحضارات .

كانت مائدة الفكر ، في تلك الفترة من الزمن ، تحتوى
ثلاثة ألوانٍ من شهى ما طبخه الذهن الإنساني : لون الهند ،
ولون الفرس ، ولون الإغريق ، وكان بديهياً أن يقدم على تناول
هذه الأطعمة الشهية . . . ولكن كيف ؟ أتسيغها معدته ؟
أعنده هذه القابلية لهضم هذا الطعام الغريب ؟ . . لقد تساءل
عن ذلك . . . ومن حقه أن يتساءل . أوليس في عصرنا قوم
ينكرون ما أنتجه الفكر الغربي من غذاءٍ شهى ، ويعده فريق
رجساً من عمل الشيطان !

وقف العربي يتطلع إلى هذه الأطعمة الغريبة ، أو إلى هذه
الألوان ذات الأصباغ المتنافرة المغلقة على فهمه . . . وكان لا بدَّ له
من ساحر يفك رموزها ويفتح له مغاليقها . . . فمن أين له
بالسحرة ؟ . . .

كان الفكر في بلاد اليونان يقاسي ألواناً مرة من إرهاب
الطغاة — وهذه هي قصة الفكر في أكثر العصور — وكان
لا بدَّ للمفكرين ، بعد أن أمر الإمبراطور يوسنيانوس بإغلاق

مدارس أثينا والإسكندرية ، من ملجأ أمين يأوون إليه ، فاتجهوا نحو فارس ، وأخذوا طريقهم إلى شمالي ما بين النهرين ، حيث أسسوا مدارسهم ثانية ، وأخذوا ينشرون رسالتهم العلمية في جو طليق من حرية البحث والتفكير . وكانت هذه المناطق من جملة البلدان التي افتتحها العرب ، وكان بديهيًا أن يعنى العرب بمعرفة هذه المذاهب الفلسفية التي يدين بها المفكرون . ويكاد يتفق جميع مؤرخي الإفرنج والعرب على أن سنة مئة وثلاث وثلاثين هي « بدء عهد جديد في تاريخ العقلية العربية ، إذ أخذ أبنائها يبدون حظًا غير قليل من الاشتراك في تلقي الفلسفة والعلم ، وبدأت التراجم والتعليقات تظهر في اللغة العربية ، وكونت أول مدرسة صحيحة للترجمة من حنين بن إسحق وصحبه ، تلك المدرسة التي أسسها في بغداد الخليفة المأمون لنقل المتون اليونانية في الفلسفة إلى العلوم العربية »

في هذه الفترة ، أي من عهد المأمون ، ومن عهد ابن المقفع قبله ، بدأ الذهن العربي يتطلع إلى شتى الآفاق ، بحيث لم يعض ثمانون عامًا على سقوط دولة بني أمية في الشام إلا وكان بين أيدي العرب مترجمات لأكثر ما كتب أرسطوطاليس ولبعض تأليف أفلاطون ولتعليقات للذين اشتهروا من زعماء الأفلاطونية

الجديدة ؛ ثم الجزء الأكبر من كتب جالينوس ، وأجزاء آخر
نقلت عن كتب الأطباء ومن علقوا عليها ، وطائفة غيرها من
كتب حكماء اليونان وكتب الهند وفارس .

إزاء هذا الفيض العلمى الجديد وقف الفكر العربى ، ابن
الصحراء ، هذا الجنى المارد الذى اعتاد أن يرتجل الفتوحات ويخلق
المعجزات — وقف يقرأ هذه النصوص ويتدبرها بوعى عجيب ،
وما زال يقرأ ويعيد حتى تمثلها وتبناها بعد أن هضم بعضها ولفظ
بعضها ، واستطاع في فترات قليلة أن يصبغها بصباغه ، وأن يصبها
في قوالبه ، وأصبح علماء العرب ينتجون في شتى ميادين العلم :
في الفلك والطب ، في الرياضيات والنبات ، في التاريخ الطبيعى ،
في الكيمياء ، في شتى نواحي الفكر ، هذا عدا علومهم الأساسية
التي كتبوا فيها المطولات والمجلدات ، وحتى أصبحوا في العلوم
التي نقلوها عن غيرهم أصحاب مذاهب ونظريات ، بحيث قدر لهذه
المذاهب والنظريات أن تعيش فترات طويلة في عصور سحيقة ،
وأن تكون مادة لكثير من المباحث التي كتبها أكابر العلماء
في أوائل النهضة الأوروبية .

ولسنا هنا في معرض التدليل على القيمة العالمية للمباحث
والكتب التي أنتجها الفكر العربى وملاءمتها لجوهر العلم ومادته

في هذا العصر، فهذا موضوع بحثه الكتاب والعلماء كثيراً، وانتهوا
إلى أن كل شيء نسبي في هذا الوجود، وهو يخرج عن نطاق
بحثنا، ويتعد عن صميم موضوعنا .

ولعل أوضح سطور تاريخ الفكر العربي قبل الإسلام وبعده
هي هذه الأحداث التي انبثقت من صميم حياة العرب أنفسهم،
فمنذ العصر الجاهلي، إلى ظهور الإسلام، إلى عهد الفتوحات، إلى
التنظيم الإداري والسياسي والعمراني في عهد بني أمية، إلى
النهضة العقلية التي أخذت سمتها العلمي الخالص في عهد
العباسيين - في جميع هذه الفترات تميز الفكر العربي بالخلق
والمغامرة، فكان قوى الإشعاع، قوى الأثر، ما نزل بقعة من
بقاع الأرض إلا ورسم عليها ظلاله وتلاوينه، وما هي إلا سنون حتى
تنقلب هذه البقعة التي نزلها عريّة المنزع، عريّة الفكر، عريّة
اليد واللسان، وفي هذا من القدرة والحيوية ما يقف تاريخ الفكر
إزاءه حائراً حيرة إعجاب وإجلال .

وكأنما هذه المناطق التي افترحتها في الشرق لم تكن لتروي
ظمأه، أو تهدئ ثورة حيويته ومطامحه، فانتقل إلى الغرب . .
وفي قصة فرار عبد الرحمن بن معاوية إلى المغرب وتأسيسه إمارة
أموية لون من الحيوية العجيبة التي امتاز بها الفكر العربي . . .

فقد كانت هذه المغامرة وما جرّته وراءها من ذيول — من المغامرات التي فسحت في التاريخ الإنساني صفحات مجيدة للعرب حيث صبّوا الكثير من عبقريتهم وآدابهم وفنونهم ، فأسست الجامعات وازدهرت المدن ، ورسوموا أبدع ما أنتجه الذهن البشري من آيات الفن . . كما كان محصولهم الثقافي ذا تأثير مباشر في تغيير العقلية الفرنجية في أوروبا . ويذهب الكثير من المستشرقين إلى أن آثارها لا تزال واضحة المعالم حتى الآن .

ولا يتسع المجال للإسهاب في هذه الناحية ، فالأقوال والنصوص والكتب والدراسات أكثر من أن تحدد ، وهي كلها تحوم حول الدور الخطير الذي لعبه الفكر العربي في تاريخ الإنسانية . والنتيجة أن « النزعة العالمية التي أسلمها العرب إلى أوروبا في القرون الوسطى كانت بدورها أعظم تراث حمله العرب على أعناقهم ليؤدوه إلى أهل الحضارة الحديثة ، وأنه لو لم يكن للعرب — أي للفكر العربي — من فضل غير هذا الفضل لكفى به دليلاً على ضخامة الأسس التي وضعوا قواعدها للحضارة والمدنية ^(١) »

لقد بدأ الفكر العربي ثورته الأولى في الفتوحات السياسية ،

(١) « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية » ص ٣١ .

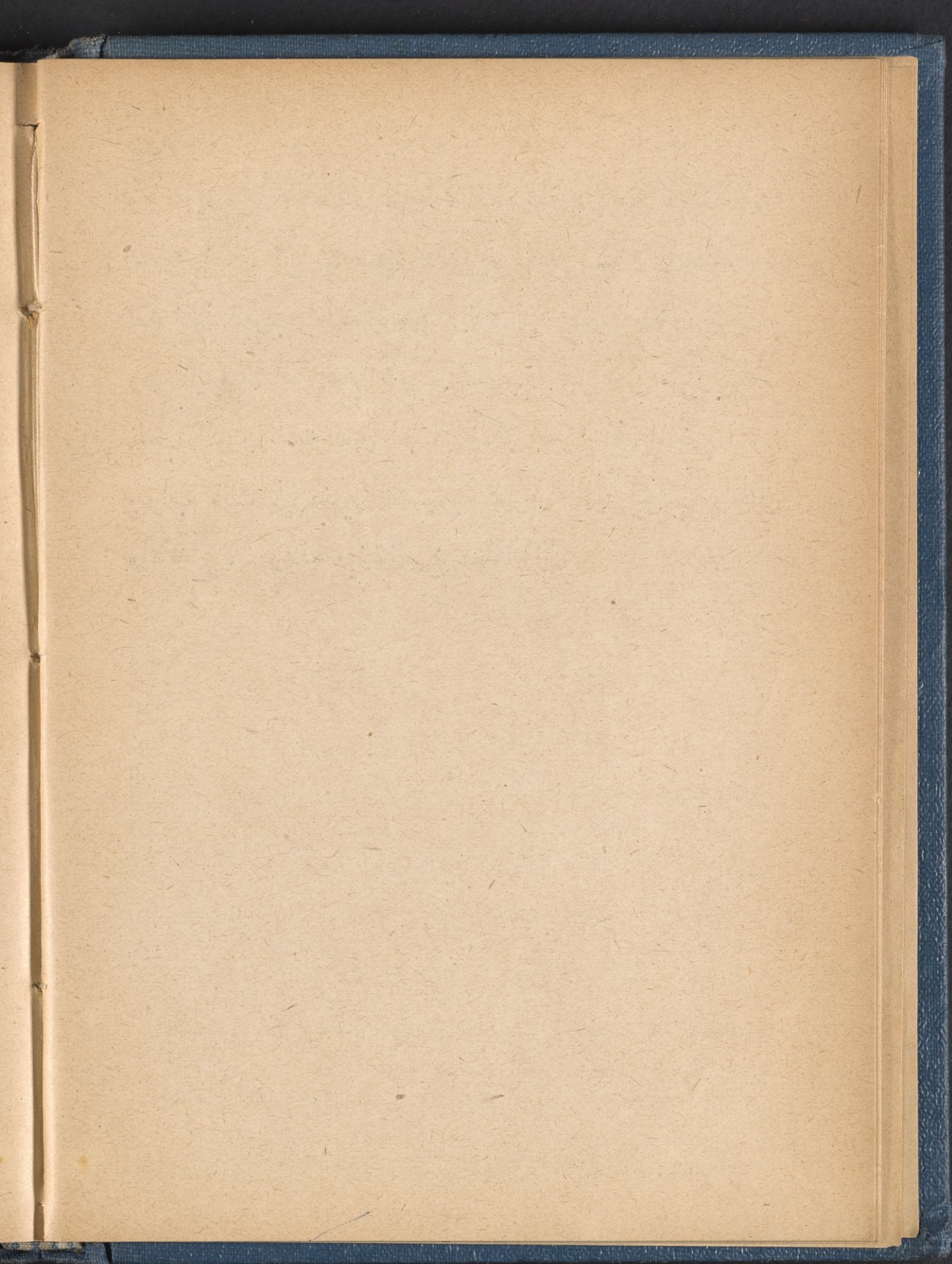
فما كاد ينشر رسالة الإسلام ، ويفتح العراق وفارس والشام
ومصر وشمالي إفريقيا والأندلس ويبلغ منها غايته المثلى ، حتى اتجه
بدوره كما قلنا ، إلى الفتوحات العالمية ، وهو في ثورته الثانية
لم يكن أقل أثراً في تاريخ الحضارة من ثورته الأولى ، وهكذا ظلّ
منذ الفتح الإسلامي خمسة قرونٍ كاملة قوي الفاعلية ، كثير
الإنتاج ، لم تهدأ ثورته ولم ينطفئ ضرامه ، وظلّ نوره واضح
الإشراق ينشر رسالته في أقصى بقاع الأرض : في الهند ،
في سمرقند ، في بخارى ، في الشرق وفي الغرب . وما زال في
حيويته وعبقريته حتى تفككت السلسلة العربية ذات الإطار
المحبوك ، وتناثرت الأشلاء على صدى المطامع الصارخة التي
انتهت بانهيار الكيان العربي المتراخي الأطراف وذوبانه في بوتقة
من الإمارات الصغيرة ذات المنازع الفردية . وكان ذلك توطئة
لهجمات المغول والبتار الذين سادوا فترة غير قليلة من الزمن
أطفأوا خلالها جذوة العلم ونبراس الحضارة ، فوقف الفكر عن
الإنتاج ، وكأنه خشي الارتطام بنزوات الهمجية وسيولها الجارفة ،
وخشي أكثر على الوديعة التي أوثمن عليها - هذه الوديعة التي
تسلمها نقيّة من اليونان ، فانتقل بها بعيداً عن هجمات المغيرين ،
وألقي بذورها في التربة الأوربية . ولم يتركها للإهمال بل تعهدوا

بالسقى والرعاية، وبالحدب والعناية، وما زال حتى أزهرت وأورقت
وأعطت أطيب الثمار. عندئذٍ اطمأن إلى أنه سلم الوديعة صافية
بعد أن زادها صقلًا وأضفى عليها نوراً وإشعاعاً. . . وكانت
الهزات السياسية، في هذه الحقبة من الزمن، قد أجهزت أو
كادت على حيوية الفكر العربي، ولم يبق له أمل أو قدرة على
الإنتاج، فوقف يرقب تطورات القدر، وهو غيبي في إيمانه،
وأوى إلى أعماق ذاته ينتظر بعقله الباطن انبثاق النور. . . وما زال
في نومه الطويل حتى أوائل هذا العصر أو قبيل منتصف القرن
التاسع عشر. . . وها هو ذا يفيق على صدى اليقظات التي هزت
شعوب العالم هزاً، يستعيد قواه وينفض عنه تراب الأحداث. . .
وكأنه يعود إلى الحياة أكثر قوة وأشد نشاطاً من قبل. . . يلتفت
إلى ماضيه يستمد من تراثه العلمي والسياسي كل عناصر الحياة. . .
وهو وجلّ خائف. . . أيزج نفسه في هذه التيارات الفكرية
التي تتصارع بقوة؟ ما مصيره إذا زج نفسه في هذا المعترك؟
أبتلعه حضارة العصر أم يظل محتفظاً بخصائصه القومية؟ . . .
كثير من أهل الغيرة على تراث الشرق يقولون بالابتعاد عن
الغرب، وكأننا هم يخشون أن تمحى الخصائص الباقية في بوتقته،

وفاتهم أن هذا خوف الوكلين العاجزين . لأن الشرق والغرب
قد تلاقيا منذ القديم واختلطتا في كثير من الأحوال ، وظل الشرقي
شرقياً والغربي غريباً على مدى الأجيال والأحقاب .

إن الفكر العربي اليوم في ولادته الأولى ، وهو يسير بقوة
وعنف ، يلتهم كل ما يقدم إليه ، وهو واثق بأن هذه الأطعمة
التي تقدم له لن تفسد معدته ، لأن لديه من المناعة ما يجعله
يلفظ كل ما لا يتلاءم وخصائصه . . وهو اليوم يطل على الدنيا
بعينين يقظتين : يرى الصراع ، ويرى التطاحن ، ويرى المآسي
الدامية والفواجع المؤلمة . . ويرى — ويا للأسف — أن القوة مبدأ
الحق ، وأن الضعف أسطورة من الأساطير . . فهل يجب أن ينمو
الفكر العربي على هذه المبادئ ويرسم دروب اتجاهه في الحياة على
هذه الخطوط ؟ كان بالأمس طفلاً تفرحه الألاعيب ، ولكن
الأحداث قد ساعدت هذا الطفل على النمو بسرعة ، فهو اليوم
في فتوته وفي تفتحته للحياة ، يقبس الأضواء ويتهيا للوثب ،
يقرأ بنهم ، يؤلف ويترجم ، يكون نفسه تكويناً جديداً ، يوائم
بين ماضيه وحاضره ، يلتفت إلى الماضي لا للتفاخر فحسب ، لأن
التفاخر لون من الميع والضعف ، بل ليسير في النهج الذي سار
عليه مبدعو ذلك الماضي . . وهو إذ يساير الفكر الغربي في ميوله

ونزعاته ، في تطوراته وانبثاقاته ، يأخذ منه أكثر مما يعطيه ،
وكأنه يشعر أنه أعطاه كثيراً ، فهو يسترد بعض دينه ، وقد
يعطيه غداً . كل شيء في الدنيا يقوم على الأخذ والعطاء . .
لقد أخذ العرب الحضارة من يونان ثم أعطوها الأوربيين ،
وهي اليوم مشاعة لجميع الأمم والشعوب . فهل نحن مهياؤن لأن
نلعب الدور نفسه الذي لعبه الفكر العربي في الماضي ؟ . .
جواب ذلك في ضمير الشباب العربي المهيأ للوثب والخلق
والإبداع . . وهذه ميزة العربي منذ الأزل .



ابن خلدون والعرب

« ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة جليلة الأخلاق والسجيا ، توافة إلى ارتشاف العلوم ، محسنة في اعتبار نعم التهذيب ، تلك النعم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة ، وإذ شاع بين الغالين والمغلوتين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة — الحضارة العربية — وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي . وذلك المجموع هو الذي نفخ فيه العرب روحاً جديداً فنصر وأزهر ، وألفوا بين عناصره ومواده بالعبرية العربية والروح الاسلامي ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض ، فأشرق وعلا علواً كبيراً ، وقد سارت الممالك الاسلامية في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها « ٦٥٠ — ١٠٠٠ م » أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقياً وتقدماً وعمراناً ، مرصعة الأقطار بمجواهر المدن الزاهرة ، والحواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموعة حكمة القدماء ومخزن علومهم يشعان إشعاعاً باهراً »

لوثرب ستودارد

في كتاب « حاضر العالم الاسلامي »

« . . . لما انتهى دور الفتح في أواخر القرن الثاني للهجرة عقبه طور التنظيم ، وقد عرف العرب كيف ينتفعون من آثار المدينيات التي تقدمتهم فاقبسوا عن المصريين والبابليين فنَّ الريَّ واستخدموه في البلدان التي دخلوها ، وتعلموا الصناعة من سورية وبلاد الفرس وأتقنوها ، وتعهدوا العلوم والآداب والفنون التي خلفها اليونان والفرس فازدهرت في أيامهم لاسيما في عصر هارون الرشيد « ٧٨٦ — ٨٠٩ » .

والعرب هم الذين اخترعوا الكيمياء والجبر وعلم الفلك . وكان لأطبائهم مقام كبير وشهرة واسعة في القرون الوسطى ، حتى إن مؤسسي جامعتنا في مونبلييه قد درسوا على العرب في أسبانيا ، وعلى أيديهم انتهت من الصين صناعة الورق والبارود ، وفي كل مكان حلوه كانوا رسل المدينة وعنوان التساهل والنشاط والشجاعة والكرم والظرف .

كان الأوربيون يدعون العرب برابرة في زمن كانت البربرية متأصلة فينا ، فقد كنا خشان الطباع ، قساة القلوب ، عبيد الجهل ، أو بتعبير آخر أنصاف متوحشين .

الشرف أجمل مظاهر المدنية وأبلغ معانيها ، وقد انتهى إليهم من الأسباب الذين تشربوه من العرب أربابه ، هؤلاء العرب الذين ملأوا أسبانيا خلال القرون الثمانية التي قضوها فيها بروائع الفن التي تدهش كل من يزور غرناطة وإشبيلية وطليطلة وقرطبة وغيرها من المدن التي كانت كعبات للثقافة في ذلك العهد . وقد قال أحد الكتاب وفي قوله كل الحقيقة : « إن الظرف هو من صفات كل المنشآت العربية » ولا

عجب فالحمراء وجنة العريف ومناثر إشبيلية وجامع
قرطبة وباب الشمس في طليطلة هي بدائع فكر نير وذوق
بالغ . وفي غرناطة وطليطلة وغيرها أنشأوا الجامعات
التي كانت مرجعاً لطلاب العلم والأدب من كل الأقطار
على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ، ومن تلك الجامعات
نشأت ثقافتنا الفكرية التي نباهي بها اليوم «

سرف كورتلمانه

... قد نجد عند ابن خلدون ، مؤرخنا الفذ ، كل شيء
طريف : بحوثه عن طبيعة العمران ، نظراته الصادقة في
فلسفة التاريخ ، استدلالاته على المجتمع وظواهره ، تخطيطه من
سبقه من المؤرخين الذين تورطوا في الكثير مما لا ينبغي أن
يقع فيه مؤرخ يُطلب منه أن يزن الحوادث بميزان الحق
والإنصاف لا بنزوات المغرض الذي تعبت بقلبه الأهواء . وقد
نامس فيه طبيعة الناقد المجدد في عرض حوادث الاجتماع وفي
وضعه الفلسفة الاجتماعية في قالب عامي ... بل نامس ماهو
أقوى من ذلك وأوضح . وكل ذلك يضعه في القمة العليا بين
مؤرخي الأمم وكبار علماء الاجتماع ذوي النظرات الخاصة في
ظواهر الكون والحياة ، وفي سياسة الملك وطبيعة العمران ..
ولكن ما لا نقرّه عليه — بل ما يجب أن يكون موضع بحث

ومناقشة يجدر بالأدباء والمؤرخين معالجته على ضوء التفكير المجرد
عن كل حزبية أو عصبية — اتهمه العرب بـ « الوحشية » وأن
قدرتهم في التسلط تقف عند حدّ البسائط ، وأنهم إذا ما تغلبوا
على أوطانٍ أسرع إليها الخراب ، وأن العرب أبعد الأمم عن سياسة
الملك ، إلى غير ذلك مما نراه واضحاً في مطاوي مقدمته . ولكيلا
نكون موضع تهمة في تلخيص ما أشرنا إليه نورد بعض جملة ، قال :

١ — « إنهم — أي العرب — بطبيعة التوحش الذي فيهم —
أهل انتهاب وعبث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا
ركوب خطر ، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر ، ولا يذهبون إلى
المزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم » !

٢ — « وإنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه
فيهم ، فصار لهم خلقاً وجبلة ، وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج
عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة ، وهذه الطبيعة منافية
للعمران »

٣ — « إن العرب أكثر بداوة من سائر الأمم .
وقبل مناقشة هذه الأفكار نريد أن نتساءل : هل يقصد
ابن خلدون « العرب » من حيث هم أمة لعبت دورها اللبق في
تاريخ الحضارة ، أم « الأعراب » سكان البوادي الذين لا يزال

أكثرهم على سجاياهم الأولى وعنعناتهم الجاهلية ؟ وهل يمكن أن تكون خشونة البدوي سبباً نصم به العربي ذا السجايا الناصعة الذي خلق مدنية لا تزال كواكبها تسطع ، وبعد فهل يقصد البدو الذين لم يعمر الإسلام قلوبهم ، أو تكون كلمته عامة تشمل العرب والأعراب معاً ؟ وبديهي أن العرب غير الأعراب . .

في كتب اللغة أن الأعراب ، من العرب ، سكان البادية . والرجل أعرابي إذا كان بدوياً صاحب نجعة وانتواء وارتياح وتتبع مساقط الغيث . ويقال إنه إذا قيل للأعرابي : يا « عربي » فرح بذلك وهشّ ، وإذا قيل للعربي : يا « أعرابي » غضب .

وفي كتب اللغة أيضاً : أن مَنْ نزل بالبادية ، أو جاور البادية ، فظعن بظعنهم ، وانتوى بانتوائهم ، فهم أعراب . ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مِمَّنْ ينتمي إلى العرب فهم « عرب » وإن لم يكونوا فصحاء .

والأعرابي : الجاهل من العرب .

إذن ، فإذا أراد ابن خلدون من كلمته العامة المطلقة ؟ أراد العرب أم الأعراب ؟

أسئلة تمرّ بالفكر ، وقد يستطيع كل باحث أن يعاملها بحسب أهوائه وميوله : واحد يحب ابن خلدون ويحب قومه فيجب أن

ينفي عن العرب كل مذمة ومنقصة، وربما لا يتورع أن يلتبس
للمؤرخ أوهى الأسباب؛ وآخر لا يهمل العرب بقدر ما يهمل
ابن خلدون فيجد في كلامه آية الصدق وروح الحق، وربما لا يتورع
هذا «الشعوبي» أن يتخذ من هذا الكلام الطارئ دستوراً
محكماً يطبقه على العرب في جميع العصور وفي كل البقاع وإلى ما شاء
الله!... وليس هذا ما يبرز الفكرة في ثوبها الحقيقي، بل البحوث
المجردة هي التي تجلوها ناصعة وتبرزها ثقية غير مبرقة بنقاب!..
ولعلنا لا نبعد عن الحقيقة إذا افترضنا أن ابن خلدون أراد البدو
في حكمه القاسي لا العرب المتحضرين، ولا يُعقل أبداً بعد أن لمس
سرّ الفتوحات الإسلامية وما تركه العرب في الشام وبغداد ومصر
وفارس وقرطبة من مدنية باهرة وحضارة مكينة القواعد —
لا يعقل أن يصم مؤرخنا الحكيم الشعب العربي ذا الخصائص
النجبية بالتوحش والبداءة وبالعبث والنهب، إلى آخر هذه
الصفات والمخازي التي قد تنطبق على بعض الشعوب وهي في
بداوتها الأولى، لا على شعب فرض مدنيته على أمم متحضرة،
فاستطاع في مئة عام أن يخيّر العالم أجمع بمعجزات فتوحاته..
على أنني أحب أن أستطرد هنا إلى مسألة طالما جالت
في فكري من سنوات، ولا أزال حتى كتابة هذه الكلمة

في حيرة من الجواب عنها جواباً صريحاً ، وهي :
أعراب اليوم — أي هذه القبائل البدوية التي تحتل
صحراوات جزيرة العرب — هل ثمة فروق أو مباينات في طبائعها
وخصائصها وعصبيتها عن الأعراب وتلك القبائل البدوية التي
اشتركت في مجد الفتوحات الإسلامية ؟ يخيّل إليّ ، وهذا ما أفترضه
دائماً ، أن هؤلاء من أولئك ، وأن الخصائص الجنسية والعصبية
وطبيعة الفتح والقتال هي هي عند الفريقين لم يتبدل منها شيء !..
وإذا كان افتراضي صحيحاً فلم لا نلمس في هذا العصر — حتى في
عدة عصور راجعة بعيدة — بعض هذا الذي نعرفه عن ذلك البدوى
الذى لم يجد أية غضاضة في أن يغامر وأن يصل في مغامراته إلى
قلب أوربا ؟ أفى الأمر معجزة ترجع إلى سرّ النبوة ؟ أم ثمة
اعتبارات موضوعية ؟ أم أن طبيعة أولئك غير هؤلاء ؟ أم أن بقاءهم
على ما كانوا عليه قبل ألفي سنة دون أن يأخذوا بمعدّات الحضارة
هو الذى جعلهم كمية مهملة لا يستطيعون القيام بعمل مجيد يذكره
التاريخ بالفخر والإعجاب .. هذا مع العلم بأن مغامرات الفتح في
صدر الإسلام لم تكن قطّ لتستند إلى مثل هذه المعدّات بقدر
اعتمادها على ما في صدر البدوى من تضحية وإيمان ؟ .. ثم هذه
القبائل المنتشرة في قلب الصحراء يأكل بعضها بعضاً دون أن

تستطيع القيام بمغامرة ما في سبيل مثل من تلکم المثل العليا ، هل
يتاح لها ذلك قبل أن تفني الكثير من عنعناتها في شخصية فذة
تنقلها من طور إلى طور .. ؟ أم ماذا ؟ أسئلة كثيرة تتردد في نفسي
كلما عرضت لهذا الموضوع دون أن أستطيع ربط مقدماته
بنتائج ، وفي اعتقادي أن موضوعاً كهذا يحسن أن يتناوله
الكتاب والمؤرخون ، للوصول به إلى نتيجة حاسمة قد تضيء
بعض هذه الجوانب الغامضة في تلميحات ابن خلدون عن العرب
أو الأعراب ، أو ما لا يزال سرّاً في ضمير مؤرخنا العظيم الذي
طوي كنهه مع الأيام ! ..

وبعد ، فلنأخذ كلام ابن خلدون على علته ، ولننظر بالعين
المجردة إلى ما قاله في العرب ، ولا شك أن شخصية فذة
كان خلدون لا يفوتها هذا التباين الذي تحدده كتب اللغة وما هو
معروف متداول بين الأعرابي والعربي . نعم ، لننظر بالعين المجردة
إلى ما قاله في العرب ، فهل نجد فيه هذا التجرد الذي يجب أن
يتصف به مؤرخ مثله أخذ على غيره من المؤرخين القدماء انغماسهم
في العصبية والهوى دون التفكير .. ووصفه ، وإن كان ينطبق
بعض الانطباق على الأعرابي ، لبعيد تمام البعد عن العربي
الذي استطاع أن يفرض حضارته على غيره من الشعوب ، وأن

تظل آثارها ماثلة حتى يومنا هذا — إن شعباً هذا شأنه وهذه طبيعته لا بد أن تكون صفات المدنية بعض سجاياء الطبيعة . والحرية والمدنية توأمان ، والعربي حرّ بطبيعته ، أي أنه مدني ، وحرّيته هذه التي دفعته إلى المغامرة وإلى الفتح هي التي فسرها ابن خلدون بالوحشية ، وهو تفسير فيه شيء من المغالطة والشطوط . يقول قيلا سباسا ، الشاعر الأسباني الفذ :

« ليس في طاقتنا نحن الأنداسيين المعتنقين بإيمان ثبت دين المسيحية أن نجحد دين أسلافنا المسلمين . فلئن كان الأول دين ضمائرنا فالثاني مابرح نتاج خيالنا القومي المزدان ببدائع التصور . . وإننا — على رغم لباسنا الحديث وإهمالنا لغة أسلافنا العرب — ما نزال حفدة أولئك البدو الذين تعودوا في وحشة الصحراء أن يخاطبوا الله وهم قعود أمام خيامهم المنسوجة بشعر الإبل .

« وكما أننا لو انتزعنا بعض الكلس عن جدران جلّ كنائسنا وجدنا تحته لمعاً مذهباً لاسم الله الأقدس المحفور بالحروف الكوفية ، فكذلك لو خدشنا بالأظافر بشرتنا الأوربية الصفراء لبرز لنا من تحتها لون بشرة العرب السمراء . إن قوميتنا الغربية ماهي غير العرض الظاهر ، وأما القومية الشرقية فهي حقيقتنا الخالدة . وإن كل ثوراتنا الأدبية القديمة والحديثة لم تكن في

الغالب غير أثر للروح العربية التي تطفر من أعماقنا محتجة ناقة ،
لأن ابن الصحراء المتمرد الحر الذي تعود الهواء الطلق تحت نور
الشمس لا يقوى على الحياة خلف القضبان المتراسة في الأقفاص
المظلمة المثقل جوها بكثافة القواعد المنطقية والمناهج اللغوية «
هذه الحرية التي ينطوى عليها صدر البدوى هي التي تحددو
بإبن خلدون أن يصمه بـ « الوحشية » ، وفي اعتقادي أنه لو لم يكن
العربي حرًا بطبيعته ، ولولا هذا الإيمان القوي الذي يتغلغل في
صدره . نعم ، لو لا ذلك لما اكتسح العرب سواد العالم الروماني
القديم ، ولما جاوزوا البحر إلى أوربا حتى أشرفوا على ضفاف
« اللوار » في أقل من ربع قرن .

وحين يقول ابن خلدون إن « الوحشية » أصبحت خلقًا
في العربي وأصبحت عنده شيئًا ملذوذًا ، يعلل هذه الجبلة بقوله :
« لما فيه — أى في العربي — من الخروج عن رتبة الحكم وعدم
الانقياد للسياسة » وهنا يضيف أن « هذه الطبيعة منافية للعمران » !
أو يكون الخروج على رتبة الحكم وعدم الانقياد للسياسة
وحشية ، ويكون المتمرد صاحب طبيعة منافية للعمران ؟ وإذا كان
الحكم فاسدًا والسياسة معوجة وخرج الإنسان عليهما ، ولو كان
من الأعراب ، ألا يكون مدني الطبيعة ، مشبع الروح بالحرية ؟ ...

بلى . . وإذن تكون نظرية ابن خلدون في حق العرب فاسدة من
أساسها .

ومن الأمور البديهية أن ينقلب الرجل الهادئ الذي يراد
أن تداس كرامته وتغصب حرите إلى وحشٍ ضار أو بتعبير أرق
إلى « نمر » يزود عن حياضه وكرامته وحرите بالدم وبما هو أروع
من الدم . وهذه أوروبا معاملة الشعوب ماذا كان من بعض أممها
في الحرب الكبرى الماضية وفي هذه الحرب ؟ ألم تلجأ حين
اضطرت للدفاع عن كرامتها وحريتها إلى أقصى وأروع
المدمرات الجهنمية ، ووصل ببعضها الجنون والوحشية إلى استعمال
الغازات الخائقة . ولا ريب أن هذه التدابير أكثر فظاعة
وأشد هولاً من هذه الوحشية التي ينسبها ابن خلدون إلى العربي
ظالماً وعدواناً ! . . وإذا كان أحد لا يجد في استبسال الأمم لأجل
حريتها ، برغم ما تجره الحرية أحياناً من أهوال وفضائع ، مدعاة
لوصفها بالوحشية ، مادام هذا الاستبسال في سبيل الحرية والكرامة ،
فما أحرانا أن نجرد هذه الصفة عن العربي أو الأعرابي الذي خرج
عن الحكم وثار على السياسات الإقليمية العوجاء في سبيل حرите
وكرامته . .

أثراني توسعت كثيراً في الافتراض حين نقضت رأى

ابن خلدون على ضوء الحرية التي أشبعت بها روح العربي ؟ كلا ..
فما دام افتراضه عامًّا لا يستند إلى وقائع محسوسة فما علينا أن يكون
افتراضنا عامًّا . فإذا حاولت بعض القبائل مثلاً هدم بعض الأماكن
أو تخريبها فما هي — على ما يخيّل إلى — إلا في سبيل الحرية
والكرامة . وهذا ما تلجأ إليه كل أمم العالم وما نشاهده رأي
العين في عصرنا هذا ..

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام في مقدمته لكتاب
« تاريخ الحضارة الإسلامية » لبارتولد المستشرق الروسي :

« .. ونقل بارتولد عن ابن خلدون أن العرب بدو هادمون
للحضارة ، وهو قول لا يصدقه التاريخ ، ولست أدري كيف غفل
هذا الفيلسوف الكبير عن حقائق التاريخ الباهرة . فقد استولى
العرب على الشام والعراق ومصر وإيران فلم تخرب ، وقد سارعوا
إلى إنشاء المدن منذ القرن الأول ، وبقي كثير من هذه المدن على
مرّ الزمان ، وكان لهم في الزراعة والتجارة والعمران نصيب لا ينكره
إلا من حُرف الله بصره وقلبه عن الحق »

ونقض الدكتور طه حسين آراء ابن خلدون بقوله :

« .. وقد غمط العرب حقهم وشدّد النكير عليهم غير
فيلسوف قبل عهد ابن خلدون بزمان طويل ، ولكن ابن خلدون

استطاع أن يصوغ ما ينكره عليهم صوغاً منظماً . وإذا أردنا أن
نصل إلى منشأ ذلك التعسف بحق العرب وجب علينا أن نرجع
إلى القرون الأولى من الهجرة ، وأن نبحث عنه في تلك الأمة
الفارسية التي أخضعها العرب ، هذه الأمة التي لم تدخر وسعاً في
الانتقام لنفسها من ذلك العدوان ، سواء أ كان ذلك الانتقام
بتشويه المبادئ السياسية والدينية أم بالدعوة إلى احتقار الآداب
وتسفيه السنة . « فمذ القرن الرابع أجهزت غزوات الترك
والحروب الصليبية ، ثم غزوات التتر ، على عظمة العرب حتى إنهم
في عصر ابن خلدون قلما كانوا يمثلون في شؤون المسلمين السياسية ،
وكانوا حينئذ يئنون في أسبانيا من جور النصارى الأسبان .
فليس غريباً إذاً أن يزدرهم ابن خلدون ، ولا سيما أنه عاش في ظل
الأسر البربرية المجاهرة بعدائها للعرب الذين خربوا إفريقية في
القرن الخامس . »

وهنا ، يتساءل الدكتور طه حسين بكثير من الدهشة كيف
أن ابن خلدون لم يفهم سرّ العوامل التي أدّت إلى تخريب إفريقية
الشمالية ، مع أن هذا التخريب لم يكن إلاّ تنفيذاً لأمر خليفة مصر
الفاطمي الذي أراد أن ينتقم من أسرة بربرية كانت خاضعة له من
قبل ، ثم غدّت خصماً له . ثم من هم العرب الذين فعلوا ذلك ؟

يجيب الدكتور طه بأنهم « بدو أعراب لم يتلقوا تربية
ونظاماً ، ومن الغريب أن ينسى ابن خلدون أن فتوحات العرب
في فارس والشام وأسبانيا بل في إفريقيا لم تؤدِ إلى خراب هذه
البلاد ، وأنه لو كان عادلاً حقاً لفحص الأوامر التي أصدرها الخلفاء
إلى الجيوش الظافرة ، وهي أوامر تقضى بمعاملة المغلوبين أحسن
معاملة وأكرمها ، وكان حقاً عليه ألا ينسى المعاهدة التي عقدها
الخليفة عمر بنفسه مع أهل بيت المقدس . ومن المحقق أن العرب
من بين جميع الأمم التي قبضت على ناصية الحكم في الدول الإسلامية
في العصور الحديثة كانوا أقدر وأعدل من تولى حكمها ، وأمهر
من عرف أن يهيئ لشعوبها أسباب التقدم العقلي والمادى ، وليس
لنا إلا أن نوازن بين النتائج التي ترتبت على حكم الترك وحكم العرب
في بلاد المشرق ، حتى نقرر أن العرب ما فعلوا سوى أن شادوا
وعمروا ، وأن الترك ما فعلوا سوى أن أبادوا وخرّبوا »

ولا نريد بعد هذه التدليلات ، وبعد ما قدمناه ، أن نزيد
كلمة سوى أن نقول إن ابن خلدون كان مسرفاً في كلمته تلك ،
وأن عوامل البيئة التي نشأ فيها والتي كان من شأنها هذا التوتر
بين العرب والبربر — هي التي جعلته أن يلفظ حكمه القاسى
بدون مسوِّغ .

ثقافتنا العربية القديمة وكيف نعمل على إحيائها

« . . . الآن ابتدأ الأوريون يدركون مقدار دينهم
لما قدمه التمدن العربي لأوربا مدة القرون الوسطى
عندما اشتركت في نشر هذا التمدن كل العناصر والملل
والنحل على السواء . الآن شرعوا في أوربا يعترفون
بأن العلوم الطبيعية والطبية والرياضية والأدبية والفلسفية
جميعها اغترفت من ذلك المنهل هي والكثير غيرها
من أنواع المعارف الإنسانية ودوائر التهذيب طول مدة
التهضة الأوربية في عصر الرينسانس

الآن أخذوا يقدرون تأثير الحضارة العربية في
درس الميكانيكا والزراعة والنباتات ، وقد رفع أساتذة
علم اللغات في أوربا في هذا العصر الستار عن مئات
الكلمات العربية التي دخلت إلى اللغات الأوربية من
أيام تلك الحضارة العربية ودرجت بين العلوم إلى
يومنا هذا من غير أن يعلموا أصلها العربي . . »

المستشرق الدكتور يهودا
الأستاذ بجامعة مدريد

« إن الأمم في بدء وثباتها تتطلع دائماً إلى الماضي
لتخلق منه ذلك التراث الذي خلقه الأوائل مجدداً
جديداً ، والنهضات الثقافية في كل عصور التاريخ
قد بدأت متجهة نحو العصور القديمة تستمد منها
الوحي والإلهام . وتاريخ الإنسانية بمجموعه تحتويه
القبور أكثر مما تحتويه الدور ، ولن يكون لأمة
حياة إذا تركت هذا المجد مطوياً في السجلات ولم
تقرأه في كل آن »

الدكتور هبطل

كيف نعمل على إحياء ثقافتنا العربية القديمة ؟
هذا سؤال وجهته إلى طائفة من أصدقائي الأدباء ، فكانت
أجوبتهم متباينة مختلفة ، فمنهم من أنكر قيمة الثقافة العربية ،
ومنهم من اعتبرها ثقافة إسلامية غير عربية ، ومنهم من أنكر
موتها حتى نعمل على بعثها وإحيائها ، ومنهم من اعتبرها البذور
الأولى لنمو نهضتنا الفكرية الحديثة في هذا العصر ..
وإني ملخص هنا بعض هذه الآراء المتباينة توطئةً لبحث
هذه الناحية العامة التي يجب أن يعيرها كل مفكر عربي الكثير
من اهتمامه .

قال الدكتور اسماعيل أدهم المستعرب التركي :

« إن بحث إحياء الثقافة العربية يحمل إلى الذهن أن هناك

ثقافة عربية قديمة ، بينا الواقع غير ذلك ، فهناك ثقافة إسلامية
يعبر عنها تجاوزاً بالثقافة العربية ، اشترك في إقامة بنائها الفارسي
قبل العربي ، والرومي قبل ابن الصحراء .

ولم يكن محور هذه الثقافة خصائص العنصر العربي إلا في
الشرق العربي ، إنما كانت خاصتها الأساسية ومحورها « المدنية
الإسلامية » التي ينزل منها الإسلام منزلة المدار من جحر
الرحى ، وإن كان الإسلام في حد ذاته كون قراراته مما انصب
في تضاعفه من مظاهر الحياة العقلية والشعورية والاجتماعية عند
العرب ، فذلك يرجع لكون الإسلام خرج من فلولات شبه
جزيرة العرب ، والإسلام كعقيدة دينية في الجماعات ليس أكثر
من مظهر اجتماعي يرجع لعوامل ومؤثرات طبيعية واجتماعية
تضمنها المحيط الذي نشأ فيه . إذن فالخصائص التي حملها الإسلام
في طياته لا شك أنها عربية ، غير أنها تكيّفت في إيران
بخصائص العنصر الفارسي ، وكذلك في التركستان بخصائص
العنصر التوراني .

وهذا رأى أكثر من أديب مصرى ، كإسماعيل مظهر ،
ومحمد عبد الله عنان ، وهو صدى آراء بعض المستشرقين ، وقد
ردّد هذا الرأى أخيراً المستشرق الروسى ث . بارتولد في كتابه

« تاريخ الحضارة الإسلامية » مما حمل الدكتور عبد الوهاب عزام
أن ينقض هذا الرأي بقوله :

« ... فائقة علوم الدين واللغة في ذلك العصر أكثرهم عرب ،
ولست أقول هذا عصبية للعرب ولكن إحقاقاً للحق ، فقد ظلم
العرب منذ شاع رأى ابن خلدون العربي الكندى في أن حملة
العلوم في الإسلام أكثرهم العجم . وهو كلام يعوزه شيء من
التبيين . وليس هذا موضع المجادلة في رأى ابن خلدون ، ولكنى
أعارض رأيه بهذه الكلمات :

(١) وضع ابن خلدون العرب في مقابل غير العرب ، فجعل
أمة واحدة في إزاء أمم كثيرة ، فظهر لغير المتثبت أن نصيب
العرب في العلوم الإسلامية قليل .

(٢) نظر إلى البيئة حين أراد أن يجعل العرب قُرسًا ، فقال
عن علماء العرب الذين عاشوا في إيران إنهم عجم بمنشئهم وشيوخهم ،
ونظر إلى الجنس حين أراد أن يجعل العجم الذين عاشوا في بلاد
العرب عجمًا . ولو نظر إلى البيئة وحدها لعدّ من العرب كل العلماء
الذين نشأوا في الكوفة والبصرة وبغداد والبلاد العربية كلها .
وعدّ سيبويه البصري تلميذ الخليل للعرب ، ولو نظر إلى النسب

وحده لعدّ للعرب كثيراً من أبنائهم الذين نشأتهم البلاد العجمية
مثل الفخر الرازي ومحمد عوفى^(١) »

وليست هذه الناحية من صميم بحثنا بل جاءت استطراداً .
ونعود إلى رأى الدكتور أدهم فى خصائص هذه الثقافة التى
يصفها بقوله :

« ليس فيها ما يشجع على إحيائها من جديد ، لأن قرارة
الثقافة الإسلامية « الغيب » ، وإن ابن العشرين لا يمكن أن
يحيا فى صميم هذه الثقافة ، ولا يستطيع أن يعيش بمنطقها » .
وأجاب الدكتور حسين فوزى بقوله :

« . . ماتت الثقافة العربية عقب القرون الوسطى وذهب
غبارها مع الثقافات الأخرى التى عرفت أوربا فيما بين انحلال
الإمبراطورية الرومانية وعهد الرينسانس ، ولا قيمة للثقافة
العربية عندى أكثر من أنها لعبت دور انتقال فى العصور
الوسطى ، فكانت مستودعاً لبعض تفكير مظاهر اليونان فيما قبل
عصر إحياء العلوم . وهو دور إيجابى جليل يمكن أن يضاف إليه
الدور السلبي الذى لعبه العثمانيون حينما قضوا على حضارة بيزنطة ،
نخرج علماءؤها وتشردوا وكانوا نواة من نوى عصر الإحياء . . »

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ل : ف . بارتولد ترجمة حمزة طاهر ص ٧

ويعتبر الدكتور حسين فوزي الثقافة العربية القديمة حلقة اتصال بسيطة بين اليونان وعصر الينسانس ، وقد انطفأ نورها كما ينطفئ السراج الذي نضب زيتيه وأحترقت ذبائته ، ولا يكتفى بهذا الحكم بل يقول « وانكسر إناءه أيضاً » ثم يجزم بالأفادة من إحياء الثقافة العربية القديمة بهذه الكلمة الحاسمة :

« . . إن من خير جميع الأمم التي تتكلم العربية أن تنصرف عن خيالها بشأن هذه الثقافة ، فلا تضيع وقتها في نبش قبور لن تجد فيها حتى ولا عظماً متماسكة ! — كانت تراباً وإلى التراب تعود — »

وبينا يحكم هذا الأديب المتطرف على الثقافة العربية القديمة بالموت ، منكرًا كل فضل للعرب ، وكل قيمة للتراث العربي القديم ، يجيب الأستاذ توفيق الحكيم بقوله :

« . . تسألني كيف نعمل على إحياء ثقافتنا القديمة وهل ماثت هذه الثقافة حتى نطلب إحياءها . إن الثقافات والحضارات لا تموت ولكنها تهضم في ثقافات أخرى وحضارات أخرى ، فالثقافة العربية القديمة كالثقافة الإغريقية القديمة قد امتصتها واحتوتها الحضارة الأوربية القائمة ضمن التي امتصت وهضمت . فإدانة الثقافة لا تنعدم ولكنها تتحول إلى ثقافة جديدة ، وتدخل في

تركيب حضارة جديدة . فالقول بإحياء الثقافة العربية القديمة أو الإغريقية القديمة قول لا أستطيع أن أفهم له معنى . فالحضارات إنما تقوم على الحضارات . وهيكل الحضارة القائمة إنما ينهض على طبقات متعددة من حضارات سابقة . فلو فرضنا المستحيل وأردنا أن نزل طبقات ونرجع إلى ثقافة قديمة بعينها وحالتها وكميتها الغابرة، فماذا نجد فيها غير شيء أولي إلى جانب ثقافة العصر الحاضر . أما إذا كان المقصود من كلمة الإحياء لا إحياء الثقافة القديمة بعينها وحالتها وكميتها إنما المقصود إحياء المجد الغابر والمكانة والازدهار الذي لفت الأنظار إلى الثقافة العربية القديمة في عصرها فهذا شيء آخر ، وهذا أمر ممكن لو أننا عملنا واجتهدنا في سبيل إحداث نهضة ثقافية يشعر بهزتها العالم المتحضر . ووسائلنا في هذا هضم كل ثقافة موجودة ، قديمة أو حديثة ، وإخراج ثقافة جديدة تتم عن روحنا وشخصيتنا الشرقية ، وتستطيع أن تقف جانباً إلى جنب مع الثقافتين العظيمتين الحاضرتين : اللاتينية والأنجوسا كسونية .

وقد أجاب كثيرون عن هذا الاستفتاء ، ويطول المجال لو رحت أجمل جميع ما وردني بهذا الصدد ؛ فاني اخترت منها هذه الفقرات التي تشير إلى الموضوع من الناحية السلبية !

هل من فائدة تعود على نهضتنا من إحياء تراثنا
الفكرى القديم ؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال ، أريد أن أقول كلمة في قيمة
هذا التراث .

لقد ترك العرب ثروة ضخمة من البحوث في اللغة والأدب
والنقد ، في التشريع والفلسفة والتاريخ ، وفي مختلف النواحي
الثقافية ، ومن يتاح له أن يبحث هذه المخلفات بدقة وفهم ووعى
يقف على مبلغ الجهد العظيم الذى صرفه الأوائل في إبداع هذه
المخلفات ، فقد مزجت حياة العرب الفكرية حياة من سبقهم
من الأمم ، وكان من هذا التمازج هذه الحضارة العربية التى
حملت إلى أوروبا فى تلك العصور السحيقة صميم الفلسفة اليونانية .
والتراث العربى الإسلامى يشكل فى تاريخ الفكر حلقة
طويلة بين هذه الفترات التى انقضت بين عهد الإغريق وأوائل
النهضة الأوروبية — حلقة ليست بسيطة كما قال الدكتور حسين
فوزى . وما من أحد ينكر قيمة الكتب التى كتبها الرازى
والكندى والفارابى وابن مسكويه وابن سينا والغزالي وابن باجه
وابن طفيل وابن رشد وإخوان الصفا وأئمة الصوفية وكبار الشعراء
والمؤرخين كالحلاج والمعري وابن خلدون وغيرهم وغيرهم ..

إن هذا المحصول الثقافي الذي أبدعه العرب ، ولو تته الحضارة
الإسلامية بأصباغها الزاهية ، لا يمكن اعتباره عديم الفائدة لا تأثير
له في نهضتنا الفكرية ، أو أن تأثيره سلبى قد يرجع بنا عشرات
السنين إلى الوراء . نعم ، لا يمكن اعتبار الثقافة العربية القديمة
ثقافة متينة . ليس فيها ما يشجع على إحيائها . ومن الغريب أن
ينظر إليها بعض أدبائنا هذه النظرة الضيقة على حين سبقنا
الأجنبي إلى الكشف عن خصائصها وجمالها والوقوف وقفة إعجاب
بقيمتها . لقد سبقنا المستشرقون إلى البحث عن تراثنا منذ نصف
قرن تقريباً ، وإذا حيرتهم وإعجابهم بقيمته يبلغان حداً ما بعده حد . .
وأغلب ظنى أنه لولا غوص الأجنبي المستشرق فى أعماق العربية
يكشف دررها ويقضى السنوات الطوال فى نشر مخطوطاتها
ويدلنا على قيمتها ويقارن بينها وبين أسمى ما أبدعه فكر الإغريق
قديماً والفكر الغربى حديثاً — أغلب ظنى أنه لولا عناية
المستشرقين فى نشر كتبنا ودلائلنا على نواحي القوة والعمق
والجمال فى ثنايا سطورها لما تردد أكثر الشباب — لو كان الأمر
إليهم — أن يجعلوا هذه الكتب الصفرة طعمة للنيران . وقد
أكون أحد الذين دعوا قبل سنوات إلى حرق الكثير من هذه
الكتب ، لأنى اعتقدت ، فى يوم ما ، أنها تعوق تطورنا الفكرى ،

وهو اعتقاد خاطئ دون شك . لأن كتبنا القديمة ليست كلها عديمة الفائدة ، وإلا نكون حكمنا على التراث العربي كله حكماً قاسياً ، وجردنا الحضارة العربية التي رسم خطوطها الكتاب والشعراء والفلاسفة من أبداع قيمها الفكرية . وهذا عقوق للتاريخ وللفكر معاً . هذا التراث الضخم الذي تركه الأوائل والذي لا يزال أكثره مغموراً تحت سحجف النسيان ، والذي التفت إليه المستشرقون قبل أن نلتفت إليه هو الذي نريد أن نبعثه حياً لأنه من البذور الأولى في نمو نهضتنا الفكرية الحاضرة التي لن يكفيها أن تقوم على دعائم الثقافة الغربية ، بل لا بد أن تمد يدها إلى هذا الماضي المملوء بالثروات والكنوز والاستفادة مما تحويه من فيض وخير وجمال .

فما هي وسائلنا لبعثه ؟ وكيف ندينه من أذواقنا وأفهامنا ؟

لقد عرض لهذه الناحية أكثر من أديب واحد .

وأجاب الأستاذ أمين الريحاني بقوله :

« الأمة العربية اليوم في يقظة قومية عامة ، ولكنها لا تزال مشتتة الكلمة ، متقطعة الأوصال ، مختلفة الأهداف والآمال . وما يؤسس فيها من معاهد وجمعيات لإحياء ثقافتها القديمة ، والأصح أن يقال لإحياء الصالح لهذا الزمن من ثقافتها

القديمة — لا تدوم ولا تعمّ فوائدها إن لم تعضدها الحكومات
العربية وتمهد لها سبل النشر والدعاية»

ثم قال :

« إنى أرتئى أن يعقد مؤتمر ثقافى عربى عام فى مصر أو فى
لبنان تبحث فيه الثقافات العربية القديمة العالمية والعملية والأخلاقية
ويقرر ما ينبغى أن تقوم به كل حكومة عربية من الأعمال
لإحياء الصالح منها لزماننا . وينبغى أن يكون برنامج العمل
واحداً فى كل الأقطار وكل الحكومات العربية . وإلاّ فالقوضى
القائمة اليوم تستمر وتزداد ولا تفلح إلى جانبها الأعمال الفردية
والإقليمية مهما عظم شأنها » .

وحدّد الدكتور هيكمل شكل الإحياء العربى ، أى إحياء
المؤلفات العربية القديمة فى العصور المختلفة ، بقوله :

« . . إن علينا أن نجعلها فى ثوب من تفكير هذا العصر
الذى نعيش فيه ، مع ربط الحاضر بالماضى من ناحية الثقافة ،
والاستفادة إلى ذلك من علم الغرب أو حضارته لتكون بيننا وبينه
رابطة لم يبق مفر منها بعد أن وصلت المخترعات الحديثة بين
أجزاء العالم بأوثق صلة وأسرعها » .
ثم أضاف إلى ذلك قوله :

« ومن الضروري أن يقوم الإحياء على دراسة الكتب وتلخيصها وصوغها في أسلوب حديث على الطريقة التي ألفها الناس في زمننا، هذا وتقريبها إلى الأذهان ، وتيسير قراءتها على المثقفين كافة». هذه هي الطرق التي ارتآها كبار كتابنا وأدبائنا . فكتب الغزالي مثلاً ، نستطيع أن ننشر منها بعض نماذج حية من أدبه النفسى غذاءً روحياً شهياً لطلاب المدارس الثانوية . ثم ننشر بعض هذه النماذج بصورةٍ أوسع لطلاب الصفوف العالية ولتلاميذ الجامعات ، ثم ننشر كتبه في التصوف والفلسفة وعلم النفس بنصها الكامل مع الشروح المقتضية لها . وهكذا ، مع أكثر الكتب التي وضعها مفكرو العرب في عصورهم المزهرة . ولكي يتحقق مشروع الإحياء ، وقد بدأت به بعض المعاهد الثقافية وبعض الأدباء ، يجب أن نحصر عملنا في ثلاثة أمور :

(١) في البحث عن المخطوطات المضيعة والمدفونة في الخزانات الخاصة ، وفي خزانات المدارس والمساجد « والتكيا » وفي خزانات المكاتب العامة ، في الشرق وفي الغرب .

(٢) في دراستها وتصنيفها ونشر أهمها والأكثر فائدة منها وإلصاقها بنهضتنا الفكرية .

(٣) في إعادة نشر أنفس كتبنا القديمة المطبوعة الأدبية

والتاريخية والفلسفية ، بطريقة المستشرقين لا بهذه الطريقة
المعوجة التي أضحكت منا المستشرقين . فنشر الكتب عندنا ، كما
يقول الدكتور طه ، عبارة عن نسخ الكتاب ليس غير ، وهو
تكرار لنسخة مخطوطة نظفر بها فتريد أن نكررها ونذيع منها
صوراً كثيرة بين الناس ، على ذلك مضيئنا منذ بدأنا نشر الكتب
ولم نكد تتجاوز هذا الطور إلا قليلاً ، على حين أخذ الأوربيون
من قبلنا ينشرون أدبنا العربي نشرًا علميًا صحيحًا دقيقًا محققًا بمقدار
ما سمحت لهم ظروفهم الخاصة ، فكانت الكتب التي نشروها أقوم
جداً وأدنى جداً إلى النفع والفائدة والصواب من الكتب التي
نشرناها . ويكفي أن ننظر لتاريخ الطبري الذي أذاعه الأوربيون
والذي أذعنناه نحن لنتبين ما بينهما من الفرق المؤلم العظيم . وأغرب
من هذا وأدعى إلى الحزن أن قومًا منا اتخذوا نشر الكتب تجارة ،
وليس بذلك بأس ، ولكنهم جعلوا الغش والتدليس والإهمال
قوام تجارتهم ، أو أن كتباً نشرها الأوربيون محققة مدروسة
فنشروها في غير درس ولا تحقيق ، وانتهوا بها إلى لون من الفساد
يراه الأوربيون فيحنقون ويسخرون ويزدرون ، وأغرب من هذا
أن كتباً أخرى سبقنا نحن إلى نشرها على طريقتنا المملة فتداركها
الأوربيون بالتنقيح ووضع الفهارس .

هذه هي طريقتنا في نشر الكتب ، وهي طريقة مزرية بل
معيبة وهذا الذي يهيب بنا أن نعالج مشكلة النشر بطريقة
المستشرقين ، بعد أن ننقذ تراثنا الثمين من أيدي الوراقين الجاهلاء
وبعض المعممين الخبثاء الذين أغاروا على المخطوطات الثمينة فاستغلوها
بما يعود عليهم بالربح وعلى نهضتنا بالخزي والعار .

وقد آن الوقت لأن تهتم الحكومات العربية ووزارة
المعارف والجامعات بهذه المهمة الثقافية الكبرى ، فهي التي تستطيع
أن تمهد لماضينا الذهبي أن يكون ماثلاً أمامنا بشكله المقبول المحبب
لا بشكله المزرى المنفر — هذا الماضي الذي يفيض بالعلم والفلسفة
والأدب ، والذي يؤرخ أطوار الفكر العربي في الكثير من مراحل ،
والذي لا يمكن إنكاره مهما حاول البعض أن يقلل من قيمته
ومن جماله .

لقد فتح لنا المستشرقون الباب على مصراعيه ، وقامت
باريس ولندن وليدن وليفزيج وبتروغراد ومدريد وروما منذ
خمسین سنة أو أكثر بنشر أئمن هذه الكنوز . أفما جاء دور
القاهرة ودمشق وبغداد والمدن العربية الكبرى لتقوم بهذه المهمة
الثقافية الخطيرة ؟

نريد أن نعتقد أن الوقت قد حان .

البلديات عند العرب

إن الناظر في أصول الحسبة في الحكومات الاسلامية السالفة ، يعلم أن أجدادنا هيأوا لمدينهم وسكانها جميع ضروب الراحة والهناء ، وحاولوا أن يبعدوا عنها ما أمكن الجور والشقاء . والحسبة بالكسر الأجر ، وهو اسم من الاحتساب أى احتساب الأجر على الله ، تقول فعلته حسبة ، واحتسب فيه احتساباً ، والاحتساب طلب الأجر . وكانت الحسبة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذى هو فرض على القائم بأمور المسلمين ، يعين لذلك من يراه أهلاً له ، فيتعين فرضه عليه ، ويتخذ الأعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ، مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الخمار وأهل السفن من الاكثار في الحمل ، والحكم على أهل المباني المتداعية بهدمها ، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين في الكشائب وغيرها ، من الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين

قار ابنه خلدون

« البلدية » بلفظها المتداول اليوم لم تكن معروفة في الماضي بهذا الاسم ، بل كان يطلق عليها وعلى غيرها من الشؤون اسم « الحسبة » ، وكان المحتسب كأن تقول : رجل تتجمع فيه سلطات ثلاث : كان يجمع سلطة رئيس البلدية ، وسلطة مدير الصحة ، وسلطة مدير الشرطة معاً . وظلّ المحتسب يقوم بمهمته في البلدان الإسلامية حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يبطل هذا النظام إلا بظهور « نظام البلديات المنقول عن أوضاع الغرب في القرن الماضي »^(١) . واعتبرت الحسبة في عهد الخلفاء « من قواعد الأمور الدينية ، يباشرها أئمة الصدر الأول بأنفسهم ، لعموم صلاحها وجزيل ثوابها »^(٢) وقد تطورت الفكرة على مدى العصور ، حتى أصبح المحتسب ذلك الرجل الذي يمارس شؤون البلدية بكثير من التوسع .

وقد ألف العرب في هذا الموضوع عدة كتب لعلّ أظهرها كتاب « معالم القرية ، في أحكام الحسبة » لمحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن الأخوة القرشي ، الذي نشره المستشرق الإنكليزي المستر روبن ليوى أستاذ الأدب الفارسي في جامعة كمبرج

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ١٢ ص ٥٢

(٢) معالم القرية ص ٣

بعد أن نقله إلى الإنكليزية ، وطبعه في لندن بأصله العربي
وترجمته الإنكليزية .

وقبل أن أصف الكتاب ، وقبل أن أتحدث عن موضوع
البلديات عند العرب ، أريد أن أعرض بكلمات موجزة لأعمال
المستشرقين .

فما من ريب أن أنفس كتبنا هي اليوم في خزائن المستشرقين ،
أو في المكتبات الأوربية العامة . وإذا كنا نلوم أحياناً بعض
الورّاقين في بيعهم هذه الكتب بأثمانٍ بخسة أو باهظة للأجانب ،
فما لا شك فيه أن وقوعها بأيدي المستشرقين قد عاد بالخير على
هذه الكنوز التي لا يعلم إلا الله ما كان مصيرها لو ظلت بين
أيدي الورّاقين الجهلة ، أو ظلت محبوسة في مكتبة غني من السراة ،
لا يعرف أن ينتفع بها ، ولا يمهّد الطريق لغيره في نشرها بين الناس
للانتفاع بمضمونها .

لقد قام المستشرقون بنشر أمهات الكتب العربية ، المخطوط
منها وغير المخطوط ، نشرًا علميًا ، وطبعوها أحسن طبع ، وأضافوا
إليها المسارد والتعاليق والشروح ، بعد أن راجعوا عشرات
الكتب ومئات المستندات ، لتثبت من كلمة واحدة إذا رأوا
في الكلمة ما يغير أصل النص أو يحرف معناه . وبذلك

حفظوا لنا بعض هذا التراث الذي لو بقي بين أيدي الجبهة لظل
ملقى في مكتباتهم دون أن نستفيد من ثمرات هذه الكنوز
شيئاً . وليس من الإنصاف أن نعتبر — كما يذهب البعض —
أن جميع أعمال المستشرقين ذات أغراض استعمارية . فقد قام
جدل قبل سنوات بين كتاب مصريين أضرر المستشرقين أكثر
من نفعهم أم الأمر بالعكس ، وهل استشراقهم للعلم الخالص
أو لغايات سياسية ؟ فدافع الدكتور زكي مبارك عنهم بتحفظ ،
وشك الدكتور الهراوي في نيتهم العلمية . على أننا نقول إنه
لا يخلو البعض من جعل مباحثه وفقاً على خدمة أمته ونزعاتها
في التوسع . ولكن المرجح أن فئة غير قليلة درست الشرق
ووضعت المباحث الإسلامية للعلم الخالص . وليس معنى هذا
أن « السياسة » من الغفلة بمكان بحيث لا تستثمر نصوص
العلم ودراسات العلماء لمنافعها وأغراضها الاستعمارية . وهذا
موضوع يحتاج إلى توسع أكثر ، وليس هنا مجال الخوض فيه .
ونعود الآن إلى موضوعنا ، وهو هل عرف العرب مهمة
البلديات وهل مارسوها عملياً ؟ وجوابنا أنهم عرفوها ومارسوها
وكتبوا فيها المطولات . ولأتناول الكتاب الذي أشرت إليه بالوصف
الموجز مع إجمال بعض فصوله ، وسيجد القارئ مدى ما وصل

إليه العرب في هذه الشؤون حين استفاضت حضارتهم، وما كانت عليه ثقافتهم من وعى أصول الحكم .

فكتاب «معالم القربة» هو أصدق مرجع لمن يتقلد منصب المحتسب، جمع فيه المؤلف كل الأنظمة التي تتعلق بأمور البلديات، وإلى هذا أشار في المقدمة التي اختتمها بقوله : « وقد رأيت أن أجمع في هذا الكتاب من أقاويل العلماء مستنداً به إلى الأحاديث النبوية ما ينتفع به من استند لمنصب الحسبة، وقلد النظر في مصالح الرعية، وكشف أحوال السوقية وأمور المتعيشين، على الوجه المشروع، ليكون ذلك عماداً لسياسته، وقواماً لرؤاسته، وجعلته سبعين باباً يشتمل كل باب على فصولٍ شتى ^(١) » .

ومن الصعوبة بمكان أن نسرد في هذا الحديث كل الأبواب التي دونها، بل نشير إلى بعضها مما له علاقة بموضوعنا، فلو أخذنا نسرد خلاصة أبواب الكتاب لاحتجنا إلى صفحات كثيرة، لأن المؤلف لم يترك مهنة ولا صناعة إلاّ خصها ببحثٍ مطول . نعم، من الصعب أن أعرض لما اشترطه المؤلف من شروطٍ على كل صناعة، وما دونه من الأحكام والنظم التي كانت مفروضة على الفرانين والخبازين والجزارين والطباخين والبرازين والصباغين

(١) معالم القربة ص ٣ .

والأساكفة والبيطرة والحمامات والمزينين ، وعلى الأطباء
والمنجمين ، وعلى أصحاب السفن والمراكب ، وعلى معاصر الزيت
والدباغين وعلى النجارين والمدهنين وغيرهم وغيرهم — بل حسبي
أن أعرض عرضاً شاملاً لبعض النقط لأصل إلى النتيجة التي أردتها
من هذا البحث .

فلقد خصّ الباب الثامن مثلاً بالكلام على « منكرات
الأسواق » فشرح هذه الناحية بقوله : « ... أما الطرقات الضيقة
فلا يجوز لأحد الجلوس فيها ولا إخراج مصطبة دكان عن سمت
أركان السقائف إلى الممرّ الأصلي ، لأنه عدوان ويضيق على المارة ،
فيجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله ، لما في ذلك من لحق
الضرر بالناس » وقال : « ... ولا يجوز إخراج الفواصل والأجنحة
وغرس الأشجار ونصب الدكك في الطرق الضيقة . ويمنع ربط
الدواب على الطرق » ويعلّل ذلك بقوله : « إنّ الشوارع مشتركة
المنفعة ، وليس لأحد أن يختصّ بها إلاّ بقدر الحاجة » .

ثم يعدد الأمور الممنوعة في الطرق ، فيقول : « ويمنع طرح
الكناسة على جوار الطرق وتبديد قشور البطيخ أو رش الماء
بحيث يخشى من التزلق والسقوط — (وهذا يدلنا على أن
الشوارع كانت مبلّطة بالحجر) — ويمنع إرسال الماء من الميازيب

المخرجة من الحائط إلى الطرق الضيقة » . وهذه التعاليم من
الأُمُور التي نصت عليها أنظمة البلدية في عصرنا الحاضر ، وعاقبت
المخالفين بغرامات صارمة .

ولقد وصلت هذه التعاليم إلى أن ناطت بالمحتسب أن
يفرض سلطته الواسعة على مَنْ شاء لمنع كل ما يضرّ المارة ، وأن
يطلب حتى من حَمَلَةِ الحطب والشوك مثلاً أن يشدوا هذه
الأحمال ويضمّوها بعضها إلى بعض بحيث لا تمسّ أحد المارين
ولا تمزّق ثوبه .

ولجمعيات الرفق بالحيوان في عصرنا هذا أن تضيف إلى
أنظمتها هذه المادة التي كان يفرضها المحتسبون في العصور
الإسلامية ، فقد منعوا أصحاب الأحمال الثقيلة وغير الثقيلة أن
يتركوا هذه الأحمال على ظهور الدواب حين تقف في العراض ،
لأنها إذا وقفت والأحمال عليها أضرتها ، وكان ذلك تعذيباً لها » .
كذلك بنيت الأحواض المائية لشرب الدواب في الشوارع العامة ،
وهذا منتهى الرفق بالحيوان الأعجم ، فقد روى المقرئ (١) في
عدة مواضع عند كلامه على خطط القاهرة ورحابها أنه كان بها
أحواض لشرب الدواب كما هو الآن بالميادين العمومية ، فمنها

(١) « أغرب صفحات التاريخ الاسلامي لعبد الفتاح عبادة » الهلال ج ٢٧ ص ٣١٧

ما ذكره عند كلامه على رحبة قره سنقر، فقد قال : « وهذه الرحبة
تجاه دار الأمير قرا سنقر وبها الآن حوض تشرب منه الدواب »^(١)
ولا يستغرب القارئ وجود ذلك عند العرب . فقد كان
عندهم من النظم الاجتماعية والأساليب والرسوم العمرانية ما يشابه
أحدث الطرق والأساليب المتبعة الآن . فقد تنبّه العرب إلى
خطر الكلاب الضالة في المدن، فأمر الحجاج بتسميمها وإبادتها من
« واسط » وتابعه على ذلك غيره من ولاة الأمصار كما تعمل
الحكومة اليوم ، وكان اتقاء الحريق وإنارة المدن وكنسها
ورشها وخفارتها من الرسوم المفروضة على الجميع ، ولا يلغى إلا
بأمان مكتوب من السلطان يقرأ على الناس . فمن رسوم أرباب
الحوانيت لاتقاء الحريق أن يعدّوا عند كل حانوت زيراً مملوءاً
بالماء مخافة أن يحدث الحريق في مكان فلا يطفأ بسرعة ، ثم
كان يُلزم صاحب كل حانوت بأن يعلّق على حانوته قنديلاً طول
الليل يسرج إلى الصباح .

أما الكدس والرش والخفارة فتقام طائفة من العمال يكنسون
الأزبال والأتربة ونحوها من الطرق ، ويرشون الماء كل يوم ،
ويجعل عددٌ من الخفراء في كل جهة يطوفون في الطرق لحراسة

(١) المقریزی ج ٢ ص ٥١ .

الحوانيت وغيرها طول الليل . أما اصلاح الشوارع فيتعهد كل فريق بنزع ما عساه تربي من الأوساخ في الطرقات حتى لاتعلو الشوارع^(١) . وكانت تصدر بذلك المراسم من الخلفاء فتنفذ بكل دقة واهتمام . فمن ذلك ما للعزير بالله والحاكم بأمر الله من خلفاء الفاطميين من الأوامر بنصب أزيار الماء مملوءة على الحوانيت ، ووقود المصابيح على الدور وفي الأسواق ، وإيقاد القناديل في سائر البلد على المحال والمساكن والسكك الشارعة . وقد باشر الخلفاء بأنفسهم تنفيذ أوامرهم هذه ، فلازم بعضهم الركوب في الليل إلى كل موضع وشارع وزقاق^(٢) » وقد تناظر الناس لذلك في الوعيد ، واستكثروا منه في الشوارع والأزقة ، وزينت القياصر والأسواق بأنواع الزينة ، وصار الناس في القاهرة ومصر طول الليل في بيع وشراء . وأكثروا أيضاً من وقود الشموع العظيمة . . .^(٣) .

ولنبحث الآن في سلطة المحتسب نزهة تناول كل شيء . حتى الباعة الذين لا يتحرون الدقة في الموازين والمكاييل ، فهو يأمرهم بمسحها وتنظيفها من الأدهان والأوساخ في كل ساعة إذ ربما تحمل شيئاً في خرمها فيضر . وينبغي إذا شرع

(١) المقریزی ج ٢ ص ١٠٧ (٢) « أغرب صفحات التاريخ الاسلامی »

الهلال ج ٢٧ ص ٣١٨ (٣) المقریزی ج ٢ ص ١٠٨

في الوزن أن يسكن الميزان ، ويضع فيه البضاعة من يده
في الكفة قليلاً . ولا يهمن بإبهامه فإن ذلك كله بخس . وينتهي
إلى أوامر ونواهٍ في غاية الدقة لمنع الغش سواء في الموازين أو في
المقاييس أو في المكييل .

وفي الفصل الحادى عشر من كتاب ابن الأخوة القرشى
تعليمات دقيقة وأوامر صارمة تتناول الطحانين وتحذرهم من خلط
ردىء الحنطة بجيدها وعتيقها ، وضرورة غربلة الغلة من التراب
وتنقيتها من الطين وتنظيفها من الغبار قبل طحنها .

وثمة تعليمات في الباب الثانى عشر خاصة بالفرانين والخبّازين
وما يجب عليهم عمله من رفع سقائف أفرانهم وعمل منافس
واسعة للدخان مع كنس بيت النار في كل تعميرة وغسل المعاجن
وتنظيفها ، ويمنع المحتسب العجّان أن يعجن بركبته أو بمرفقيه
لأن ذلك مهانة للطعام ، وربما قطر في العجين شيء من عرق
إبطيه أو بدنه . ولا يبيح له أن يعجن إلاّ وعليه ملعبة ضيقة
الكمين ، وأن يكون ملثماً لأنه ربما عطس أو تكلم فقطر شيء
من أنفه^(١) .

ولا نملو إذا قلنا إن بلديات أكبر مدن العالم لم تحتط هذا

(١) في الأصل : فقطر شيء من بواقه أو مخاطه .

الاحتياط في حرصها على النظافة التي لحظها العرب في ازدهار حضارتهم .

فإذا انتقلنا إلى الباب السادس عشر ، وقرأنا هذه التعليمات التي دونها بخصوص الجزارين رأينا العجب ، فالمحتسب ، أي رئيس البلدية ، لا يكتفى بمنع الجزارين من الذبح على أبواب دكاكينهم للأضرار التي تنشأ من تلويث الطرق بالروث والدم ، بل يكلفهم أن يذبحوا مواشيهم في المذابح — وهذا يدلنا على أن المذابح العامة كانت موجودة عند العرب في العصور الإسلامية — ويحتم عليهم أن يتحاشوا الغش وأن يفردوا لحوم المعز عن الضأن والآن يخلطوا بعضها ببعض وأن ينقطوا لحوم المعز بالزعفران ليميز من غيره ، وأن تكون أذناها معلقة على لحومها إلى آخر البيع . ويطول بنا الكلام لو أخذنا نسرد هذه التعاليم أو هذه النظامات التي كان يرجع إليها المحتسب في ممارسة حقه في هذه الشؤون الحيوية التي لها علاقة مباشرة بتنظيم المدن وفتح الجواد وإنشاء الحدائق وفرض النظافة ومراقبة الباعة والسهر على تخفيف البؤس عن الفقراء وإعانة المحتاجين ، ومئات المهمات العمرانية والصحية والإدارية التي يتطلبها جمال البلدان ورفاهة السكان .

والآن نتساءل ما هي الغرامات التي كان يفرضها المحتسب
على المخالفين ؟

لا ريب أنها كانت غرامات باهظة ، لأن من يعنى بدقيق
هذه القضايا وجليلها لا بدّ من أن يفكر في العقوبات التي تصونها ،
ويشرح لنا المؤلف في أحد فصول الكتاب لون هذه العقوبات .
وهي غير العقوبات التي تفرضها الأنظمة الحديثة في عصرنا هذا ،
أي الغرامة النقدية أو الحبس حين لا يستطيع المخالف دفع
الغرامة النقدية . فالعقوبات في تلك العصور لونّ من الزجر
أو ما هو أشدّ من الزجر ، ويمارس هذا الحق رئيس البلدية
أو المحتسب ، ذلك الرجل الصارم الإرادة ، المهيب الجانب ،
المسموع الكلمة ، والذي يلزم الأسواق بنفسه ، فيركب دابته
في كل وقت ، ويدور على السوق والباعة ويكشف حالة الدكاكين
والطرقات ، ويتفقد الموازين والأرطال ، ويراقب الأطعمة
وما يمكن أن يكون منها مغشوشاً . يفعل ذلك في الليل وفي النهار ،
وفي غفلة من الباعة . وقد يقوم بهذه المهمة وحده أو مع الرسل
والغلمان والأعوان ، وهم الجلاوزة والشرطة ، حتى إذا شاهد أية
مخالفة قمعها بالزجر الممزوج باللين ، فإذا لم يرتدعوا بهذا الإنذار
استعمل السوط . ويصف المؤلف السوط بأنه وسط ، أي ليس

بالغليظ الشديد ولا بالرقيق اللين ، بل يكون من قسطين حتى لا يؤلم الجسم . وإذا لم يقم السوط بردع المخالفين فهناك « الدّرة » وهي آلة مخروطية من جلد البقر أو الجمل تعلّق على دكة المحتسب ليشاهدها الناس « فترتعد منها قلوب المفسدين ، وينزجر بها أهل التدليس » على رواية المؤلف .

هذه هي العقوبات التي تبدأ بالنهي ، ثم بالوعظ ، ثم بالردع والزجر ، وأخيراً باستعمال السوط لتطبيق أنظمة البلدية بصورةٍ جدّية .

ويحدثنا المؤلف عن الصفات التي يجب أن يتميز بها جلاوزة البلدية ، فيشترط فيهم العفة والصيانة والشهامة ، ويشترط على المحتسب أن يؤدبهم ويهذبهم ، ويعرفهم كيف يتصرفون بين يديه وكيف يخرجون في طلب الغرماء .

هذه إلمامة موجزة عن فكرة البلديات عند العرب ، وطرق ممارستها في العصور الإسلامية الزاهرة . ونتساءل في ختام بحثنا هذا : متى بدئ بتطبيق الحسبة عملياً ؟

يجيب المستر ليفي ناشر الكتاب بقوله :

« حينما بلغ النظام الإسلامي درجة النفوذ في الأمة أصبح من اللازم تطبيق الإطاعة لأوامر الدين ونواهيهِ . لقد كان هذا العمل

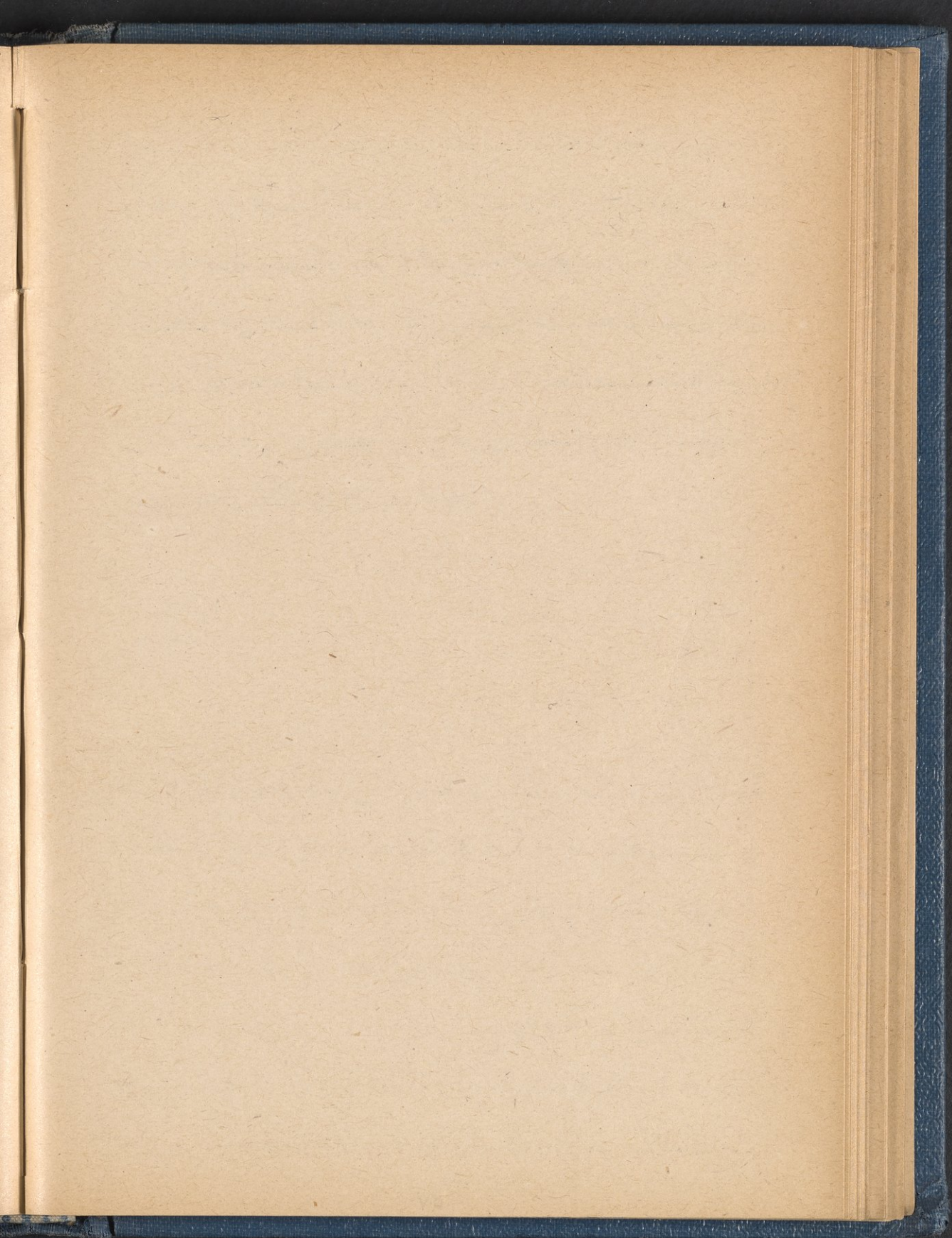
في صدر الإسلام من شأن الخلفاء شخصياً ، وكان يقوم به أحياناً
أشخاص آخرون شعروا من تلقاء أنفسهم أنهم مدعوون لتوطيد
أركان الدين . ولما اتسع المجتمع الإسلامي نيط هذا الواجب رسمياً
بأوتاد الحكومة . ولكن المرجح أن وظيفة الحسبة لم تنشأ إلا
بعد قيام مدارس الفقه حوالى أواخر القرن الثانى للهجرة . عندئذ
أصبحت كتب الفقه تحتوى على بعض الفصول المتعلقة بنظرية
الحسبة وتطبيقها العملى ، وبمرور الزمن ظهرت عدة كتب مستقلة
لمساعدة المحتسب فى القيام بواجباته .

وأقف عند هذا الحد ، لأخلص من بحثى إلى النقطتين
الآتيتين :

(١) إلى الشناء على الناشر والإشادة بقيمة الكتاب الذى
تحدثت عنه والذى يضم إلى صميم موضوعه ، كما يقول : مواد
مبتكرة تعطينا صورة حية عن حياة المدن الإسلامية فى القرون
الوسطى بأسواقها ومخازنها ومساجدها وحماماتها ، حتى يخيل للقارئ
أن مؤلفه من المعاصرين ، وأنه قضى شطراً غير قليل من حياته فى
المدن الأوربية الكبرى .

(٢) الإشارة إلى ازدهار حضارة العرب . إذ من المتفق عليه
أن عناية الأمم بعمران بلدانها ونظافة مدنها هى لون من فيض

الحضارة . وبديهي وقد ورث العرب مدينة الرومان واليونان ،
وأخذوا من الهند والفرس كل ما لديهم من ذوق وفن وصناعة
وطراز حياة وصبغوه باللون العربي — بديهي أن تكون شؤون
البلديات من أبسط الأمور التي يهتمون بها ، وهذا الذي جعلهم
يدوّنون في هذه القضايا بعض الكتب ، فتحفظ المكتبة العربية
بهذه النصوص التي يصح أن ترجع إلى بعضها — ولا غضاضة —
بعض المدن الكبرى في عصرنا هذا .



مِصر والوحدة العربية

« إن الجامعة العربية لأكبر وأوسع وأكرم
من أن تكون جامعة لحم ودم وقرابة عمومة أو
خؤولة . . إنما هي جامعة ثقافة ولغة وعقيدة
ورجاء ، وماذا يضيرها ، وهي كذلك ، أن يكون
فيها مصريون وعراقيون وسوريون وحجازيون ؟ لن
يضيرها ذلك شيئاً ! وإنما يضيرها أن تتناقر على
التاريخ وتتنابد بالأصول وتنسى أن المستقبل هو الأمل
المطلوب ، وأن الذي يجمعه الرجاء لا تفرقه الذكريات »

عباس محمود العقاد

فكرة الوحدة العربية التي يبحثها الكتاب بكثير من الحماسة
ويعمل على خلقها ساسة العرب ، هي فكرة قديمة في وسعنا أن
نقول إن مؤسس الدولة المصرية محمد علي باشا قد حاولها قبل قرنٍ
تقريباً . فهذا الرجل العصامي الذي لم يكد يجلس على أريكة
مصر ويقضي على نفوذ المماليك ويقطع علاقاته مع الباب العالي ،
حتى مدّ بصره إلى البلدان العربية التي تتألف منها الوحدة
الكبرى . فمصر وفلسطين وسورية والعراق وما إليها من المقاطعات

التي تنتظمها جزيرة العرب بلاد تحسّ إحساسًا واحدًا ، وتشعر شعورًا واحدًا ، وتتكلم بلغةٍ واحدة ، وتدين أكثريتها المطلقة بدين واحد . . وقد كانت في ماضيات الأيام ذات وحدةٍ شاملة وضمن كيان واحد ، فلم لا تعود سيرتها الأولى ، ولا سيما في هذا العصر الذي يتسم بسماء القومية الشاملة ؟ في هذا فكر محمد علي ، وعلى هذا الأساس أرسل ابنه إبراهيم باشا على رأس جيش كبير ليحقق هذه الفكرة عمليًا . ومن الغريب أن أكثر الذين عرضوا لتاريخ محمد علي لم يجلوا غوامض هذه الناحية ، مع أنها جديرة بالدرس وبكثير من التمهيص . بل إن بعض الكتاب المصريين ذهب إلى أن فتوحات محمد علي وابنه إبراهيم لم تكن لمجد مصر أو لمجد الإسلام ، بل كان يقصد منها مجد أسرة لا مجد أمة ! . . في الواقع ، أن محمد عليّ لم يقصد « الإمبراطورية العربية » لذاتها ، بل إن طبيعة الحوادث التي جابهته هي التي جعلته يفكر فيها ويحاولها عمليًا . فضعف مركز الخلافة ومطامع الدول في الامبراطورية العثمانية ، وخصوصًا مع السلطان . وانتصاراته الحاسمة في بلدان العرب هي التي حفزته ألاّ تقف آماله عند حدود مصر ، بل تمتدّ إلى الآفاق العربية ، وأن يفكر في إنشاء دولة

إسلامية عربية جديدة تقوم على أنقاض الدولة العثمانية التي دبَّ
الهرم في أوصالها وعراها الذبول ! ..

وكل متتبع لتاريخ مصر يذكر تلك الحملة الكبرى التي قام
بها إبراهيم باشا المصري إلى لبنان وسورية وقسم كبير من
الأناضول . لقد كان ذلك سنة ١٨٣٢ أى منذ مئة سنةٍ ونيف ..
ولا نريد أن نقص هنا حوادث التاريخ ، فنظرة صغيرة إلى الماضي
القريب ترينا أية مغامرة هذه التي قام بها إبراهيم باشا وأى نصر
يَبْنِي كَتَبَ له ، بل أى فوز حالفه . لقد فتح فلسطين ولبنان
وسورية ، وغزا قلب الأناضول حتى كاد يركز العلم المصري
على ضفاف البوسفور . تلك الحوادث ترسم بوضوح نفسية
المصري قبل مئة عام ، النفسية المغامرة التي تتطلع إلى الفتح
والتوسع والنضال

قدمت هذه التوطئة لأدلّ على أن مصر ليست بعيدة عن
هذه المرامي العربية ، وأن « الفرعونية » التي نادى بها بعض
الكتاب هي ضرب من الخيال . ولا ننكر من جهة ثانية ، أنها
تراث قومي ، فُسرت في البلاد العربية على غير حقيقتها . وسأعود

إلى معالجة هذه الفكرة بعد أن أعرض لأراء مؤسس الدولة المصرية
في الوحدة العربية

يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك في كتابه « تاريخ
الحركة القومية ^(١) » :

« من الراجح الذي تؤيده الحوادث أن مشروع محمد علي
كان يتناول إنشاء دولة عربية مستقلة في مصر تضم إليها البلاد
العربية في إفريقيا وآسيا ، ففي إفريقيا قد استقل بمصر وفتح
السودان ، وفي آسيا فتح معظم جزيرة العرب ، وبسط عليها
نفوذ الحكومة المصرية ، وبطموحه إلى سوريا أراد أن يؤسس
الدولة المصرية الكبرى » .

وقد أورد البارون « لبو الكونت » الذي لقي إبراهيم باشا
بالقرب من طرسوس سنة ١٨٣٣ بعد عودته من كوتاهية حديثاً
سياً سياسياً خطيراً حول هذه الفكرة خلاصته : « أن إبراهيم باشا
يجاهر علناً بأنه ينوى إحياء القومية العربية ، وإعطاء العرب
حقوقهم وإسناد المناصب إليهم سواء في الإدارة أو في الجيش ،
وأن يجعل منهم شعباً مستقلاً ، ويشركهم في إدارة الشؤون المالية ،
ويعودّهم سلطة الحكم كما يحتملون تكاليفه . وتتجلى فكرته هذه

في منشوراته ومخاطباته لجنوده في الحرب الأخيرة السورية .
فانه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها الخالد . ويتصل
بهذا المعنى مجاهرته (بأن كل البلدان العربية يجب أن تنضم تحت
لواء أبيه) وقد قال لي : إن أباه يحكم مصر والسودان وسورية ،
ومن الواجب أن يضمّ العراق إلى حكمه ، وإن جزيرة العرب
تابعة لأبيه الذي يعمل الآن على إتمام فتحها ، وهو في صلاته مع
أهل البلاد يستخدم اللغة العربية ، ويعدّ نفسه عربياً ، ولذلك
لا ينفك يطعن في الأتراك ، وقد لاحظ عليه أحد جنوده وخاطبه
بتلك الحرية التي كان يشجّع رجاله عليها وسأله : كيف يطعن في
الأتراك وهو منهم ؟ فأجابه إبراهيم باشا على الفور :

[أنا لست تركياً ، فإني جئت مصر صديقاً ، ومنذ ذلك الحين
قد مصرتني شمسها وغيّرت من دمي وجعلته دماً عربياً]

وكتب اللورد پامرستون وزير خارجية إنكلترا إلى السر
ويليام كامبل سفير إنكلترا في كابل كتاباً تقتطف منه الجملة الآتية :

« لقد كان محمد علي يرمى إلى تأليف مملكة عربية تجمع بلاد
العرب ، والمشروع جليل الشأن بذاته ، لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا ،
وهذا لا يمكننا أن نسلّم به ، فتركيا أفضل دولة تملك طريق الهند

وهي خير من أى ملك عربى يقوم على هذه البلاد ويكون
نزاعاً إلى العمل كثير الحركة .

وكتب مترنيخ وزير خارجية النمسا وقتئذٍ بعد اطلاعه على
كتاب بوغوص بك نوبار الذى كان يتولى إدارة ديوان الخارجية
في حكومة محمد على — إلى قنصل مصر بخصوص الخلاف بين
الباب العالى ومحمد على يقول :

« إننا نستنتج من اعتراف محمد على أنه يريد أمرين : استقلاله
التام عن الباب العالى ، وإنشاء الدولة العربية »

وهناك نصوص كثيرة تثبت أن فكرة إنشاء الدولة العربية
في عهد محمد على قد بحثت بحثاً جدياً وشبه رسمى ، وكانت مشار
مخاوف الدول ، لا سيما بعد أن اختمرت الفكرة في ذهن محمد على
وابنه إبراهيم .

وقد تجلّت مراميها السامية في حذبها الأكيد على القضية
الفلسطينية واحتضانها الفكرة العربية حقيقة لا يمكن إنكارها ،
وكان اجتماع أمراء العرب ورجال السياسة في مصر^(١) توطئة

(١) دعت حكومة مصر سنة ١٩٣٨ الحكومات العربية للتداول في القضية
الفلسطينية ، وقد لبت جميع الحكومات الدعوة ، وعقد مؤتمر طرحت فيه القضية
الفلسطينية على بساط البحث ، واتخذت قرارات خطيرة بضرورة حلها وصون حقوق
العرب في هذا القطر الشقيق ، وكان من وراء ذلك أن بحث المندوبون ، وكلهم
من زعماء البلاد العربية ، فكرة الوحدة العربية في مباحث وخطب غير رسمية

لوضع الحجر الأساسى لتكوين جامعة دولية من الأقطار العربية .
وإلى هذا أشار رئيس حكومة العراق آنئذٍ بقوله :

« إننا وإن دعطنا مصر العزيزة للنظر في أمرٍ معين ، إلا أن شعورنا يدفعنا إلى أن نأمل في أن يكون اجتماعنا التاريخي هذا احتفالاً بوضع الحجر الأساسى لتكوين جامعة دولية من الأقطار العربية والشرقية الممثلة هنا ترمى إلى غاية إنشائية سليمة ، شاملة غير هدامة ، تقوم على أساس إحقاق الحق وتوطيد العدل ورفع الظلم عن هذه الأقطار ، وتنهض بالتعاون والتآزر إلى ما تصبوا إليه ، وليس من وراء هذه الغاية تهديد لأحد » .

وردّ الأمير سيف الإسلام الحسين بكلمةً أكد فيها أن هذا الاجتماع هو احتفال بإنشاء جامعة دولية من الأقطار العربية . وكانت مصر في شخص هيئاتها الرسمية أكثر إيماناً بضرورة هذا التعاون والتآزر ، بضرورة تكوين جامعة دولية من الأقطار العربية . فما الذى سيلده الغد ؟ وكيف نحلق أواصر هذه الوحدة ؟ وهل إيمان مصر بمصيريتها يحول دون إيمانها بالوحدة العربية ؟

قبل الجواب عن هذه الأسئلة ، نريد أن نتساءل : هل « الوحدة العربية » موجودة ؟ وهل هى حقيقة قائمة حتى تفكر مصر فى الانضمام إليها ، أو لا تزال فكرة فى ضمير الغيب ؟

في الواقع ، أن بين بلاد الشرق العربي اليوم تجاوباً فكرياً وثيق الاتصال . وهذا التجاوب هو من الوسائل الممهدة لخلق هذه الجبهة التي يؤمن بها أناس وينكرها آخرون . فلمصرى مثلاً غير مؤمن بهذه « الإمبراطورية » التي يراها العراق قريبة المنال ، سهلة التحقيق فيما إذا تضافرت جهود العرب جهاداً صادقاً على خلقها ، وما تقوله في العراق تقوله في فلسطين والحجاز والنجد . . . وجميعهم لا يجهلون العقبات السكّاء التي تحول دون تحقيق هذا الحلم الذهبي ، ولكن إيمانهم بالفكرة هو الذي يجعلهم أكثر انسياقاً للعمل في هذا الميدان من المصري .

وسرّ ذلك أن مفهوم الفكرة في مصر لا يزال غامضاً . وقد أشار أحد كبار الكتاب السياسيين إلى هذا الغموض بقوله : « . . . أمّا البيئة التي تسير فيها فكرة [العربية وجبهة شعوب العربية] سيراً عجيباً لا يستقر على حال ويجمع بين متناقض الاتجاهات ومتقابل التيارات فهي البيئة المصرية ، وقد ظلّت هذه البيئة حقبة طويلة تتعالى فيها صيحات إسلامية وصيحات شرقية مختلفة . أما الصيحة العربية التي تؤدي إلى تكوين الجامعة الكبرى فلم نسمعها إلا منذ عهد جدّ قريب . . . أي حين تفاقم الخطر على فلسطين العربية بسبب الكارثة الصهيونية .

وحجة المصرى في هذا الانقباض أن أكثر البلدان العربية
لم تملك أمرها بعد ، ومن الصعب في نظرها أن تنتظم هذه الأقطار
في وحدة عربية شاملة أو حلف سياسى جامع قبل أن تترف راية
السيادة على ربوعها . وهذا الاتجاه جدٌ مخالفٌ لاتجاه السوريين
والعراقيين الذين يرون انفصام عرى هذه البلاد ، ووقوعها
تحت سيطرة الأجنبي ، والتطام سيادتها بسيادته ، من أقوى
العوامل لتعزيز هذه الفكرة تحت تيار البعث القومى الذى يكون
توطئة لجمع الشمل . . ويعززون هذا الرأى بقولهم : « إن البلاد
العربية من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى ، ومن جبال
طوروس إلى المحيط الهندى تنتظمها وحدة إقليمية شاملة ، وتربطها
روابط تاريخية وثيقة ووشائج دينية ولغوية أوثق ، وتحس إحساساً
مشتركاً للتخلص من الكابوس السياسى الذى ترزح تحته .
إذن . . فلماذا لا نعمل على خلق « الجامعة العربية » والعوامل
متوافرة بقوة لهذا الخلق ؟ هذا هو اتجاه السوريين والعراقيين . .
وكأنما مصر قد أخذت تنصت إلى هذه البواعث والاتجاهات
بكثير من التفكر ، وهذا الذى جعل انقباضها عن « العروبة »
يذوب تحت ضغط الحوادث ، وأصبحت فكرة انضمامها إلى
« الجامعة العربية » أكثر وضوحاً لدى المصرى من قبل .

لقد ألعنا في صدر كلامنا إلى أن مصر غير غريبة عن فكرة
« الجامعة العربية » ، وأن احتضانها الآن للفكرة معناه رجوعها
إلى مبدأ رسم خطوطه الأولى مؤسس الحكومة المصرية
قبل قرن كامل . ولمصر اليوم ثروتها الضخمة ونفوذها الأدبي
ومركزها الديني والكثير من خصائصها مما يجعلها تكون في
طليعة الداعين إلى هذه الفكرة ، المؤمنين بفوائدها ، لأن تحقيقها
— ولا سيما في هذا العصر الذي تتصارع فيه المطامع الصارخة
بشكل مخيف — أصبح من الضرورات اللازمة ، لا لمصر فحسب
بل لكل قطر عربي . ومصر في موقفها الدولي الخطير ، وبما
يتهدد حدودها من أخطار ، أصبحت تشعر أكثر من غيرها
بضرورة خلق هذه الجامعة الكبرى ، لتردّ عنها كل غارة من
غارات المطامع .

وقد أوضح الأستاذ محمود عزمي هذه الضرورة بقوله^(١) :

« والاعتبار العام هو أن مصلحة شعوب العربية جميعاً تقضى
بتأليف جبهتها ضرورة ملحة لأجل الدفاع عن كيائها ، لا ترفاً
نافلاً إرضاءً لعاطفة أو استجابة لشعور كامن . ولغة المصالح هي لغة

(١) من مقال له عنوانه : « جبهة من شعوب العربية » نشر في هلال

نوفمبر سنة ١٩٣٨ .

هذه الأيام . ودافع المصالح هو أقوى الدوافع على السعى
والتحقيق . فيجب أن تقوم الدعاية للجبهة على أساس إقناع أهل
الرأى فى أقطارها بأن وجود الجبهة لازم لاستقلال كل واحد من
هذه الأقطار بل لكيانه . وهى واقعة فى طريق الفتوحات
السياسية والاقتصادية ، بل هى محلّ هذه الفتوحات بالذات . بينما
هى تكوّن وحدة جغرافية واقتصادية لا مثيل لها من حيث التفاعل
والتكامل والتساند . فيها مختلف الأجواء ، ويروى أرضها أغزر
الأنهار ، وفيها السهول والبطاح ، والهضاب والجبال ، وفى بطون
أرضها أنواع المعادن والزيوت ، وهى إلى هذا كله كتلة متصلة
لا يفصل بينها فاصل . والعالم الآن عالم تكاثر . وكل قطر من
أقطار العربية صغير بذاته ، إذ لا يزيد عدد سكان أكثرها أهلاً على
ستة عشر مليوناً ، بينما يحيط بها أو يطمع فيها من البلاد ما لا يقل
عدد السكان فيه عن العشرين مليوناً . ولكنها إذا اجتمعت
أو كوّنت من أجزائها كتلة يبلغ سكانها الثمانين مليوناً يحولون
بعددهم وبما يستطيعون من ثقافة وقوة دون أن يطمع فيهم طامع
أو يغير عليهم مغير . وهى ذى مصر تخشى أن يقوم نزاع دولي
قتهدها الجيوش الإيطالية من ناحية حدودها الغربية ، وهى هو ذا
العراق قد قامت فيه مشكلة شط العرب وحلت حلاً لا يجمع

أهل العراق على الرضا به ، وها هي ذي سوريا اقتطع منها أخصب ألويتها منذ شهور . . . ولو كانت الجبهة العربية مؤلفة لتردد المهمدون والمغيرون ، ولحاسبوا أنفسهم مرات ومرات قبل أن يقدموا على ما يقدمون عليه الآن في مختلف أطراف بلاد العربية^(١) .

ولا شك أن الأستاذ عزمي ، في كلمته هذه ، قد صورّ الحوافز السياسية التي تدعو لخلق هذه الجامعة أدق تصوير . على أن الإنصاف يدعونا أن نقول إن مصر لم تقف مكتوفة الأيدي في هذا الميدان الفسيح ، وإذا كان من جملة الخطط التي يذكرها الكتاب والسياسة توطئة للعمل المقبل هو توحيد برامج التعليم وتوجيه النزعات الثقافية توجيهاً قومياً ، فمصر هي صاحبة الفكرة الأولى في تحقيق هذه الغاية ، وقد كانت إلى عهد غير بعيد — كما قلنا — لا تمتد يدها إلى السياسة العربية ، فلما جاءت القضية الفلسطينية كانت في طليعة الأقطار العربية التي اهتمت لها . ومعنى هذا — والنشاط اليوم على أشده بين الحكومات العربية لتكوين هذه الجامعة — أن مصر لم تعد بعيدة عن هذه الفكرة كل البعد . على أن هذا الاتجاه نحو العروبة قد حفز غير واحد من كبار كتاب مصر أن يتساءلوا: ما لون هذا الاتحاد ؟ وما كنهه ؟

(١) يلاحظ القارئ أن هذه الفقرة مقتطعة من مقال كتب قبل الحرب الحالية

وكيف يكون ؟ ومن يدعو إليه ؟ وهل الدعوة من جانب العرب
أنفسهم ، أو هي من بعض الدول الأجنبية التي تعززه لمصالحها ،
ولا سيما بعد أن أحسّت بالخطر من دول أجنبية أخرى ؟
أما أن العرب في جميع أقطارهم ، هم الذين يسعون لهذه الغاية ،
فهذا ما لا يشك فيه أحد . أما أن بعض الدول الأجنبية هي التي
تروج لفكرة الجامعة العربية في سبيل مصالحها ، فالجواب عنه
أن العرب اليوم من اليقظة الشاملة بحيث أصبحوا يعرفون حق
المعرفة أين تلتقي مصالحهم وأين تفرق . وعلى هذا يكون دخول
مصر في الإطار العربي في صالحها . ولا عسّ هذا الانضمام
« مصريتها » التي يحرص عليها بعض المفكرين المصريين ، ويخافون
أن تذوب في التيار العربي الجارف . والحقيقة أن « العروبة »
لا تنافي « المصرية » أو « الفرعونية » . ويجب أن نكشف
الغامض عن هذه القضية التي اختلف فيها الباحثون . فبينما يرى
بعض الكتاب في الشام والعراق أن احتفاظ مصر بمصريتها
معناه إيمانها بالفرعونية وتجردها عن العربية ، إذ بنا نرى بعض
الكتاب في مصر يفسرون دخول مصر في « الجامعة العربية »
بالتخلي عن مصريتها . . وكلا الافتراضين خطأ . .

فما هي الفرعونية ؟

هي ألا تقطع مصر الحديثة صلتها بمصر القديمة!... وهل
تستطيع مصر أن تقطع هذه الصلة الوثيقة، ولها من ماضيها هذا
التراث الضخم الذي يرفع رأسها عالياً بين أسمى الأمم المتحضرة؟
فالمصريون القدماء بنوا حضارة فاضت أشعتها على العالم. وهذا
ما تسجله صفحات التاريخ وتدلّ عليه الآثار الناطقة. ولكن
مصر، من جهة ثانية، قد غزتها أمم كثيرة: غزاها الفرس
وغزاها الرومان وغزاها العرب وغزاها الترك. وقد تصارعت كل
هذه القوى وحاولت أن تمحو مصر الفرعونية فلم تستطع، وظلّت
كما يقول عالم أثري: كالبيضة محاطة بغلاف من الخارج قد لوّن
بألوانٍ مختلفةٍ وضعها عليها الفاتحون من الخارج، ولم يتمكنوا برغم
طول الزمن واختلاف الأجناس البشرية التي توالى على حكمها
منذ سنة ٥٢٥ ق. م. من تغيير شيء كثير من عاداتها وتقاليدها
التي تكونت منذ فجر التاريخ. نعم، حاول الفرس وحاول الرومان
وحاول الترك أن يمحووا مصر الفرعونية فلم يستطيعوا، ولم يغيرها
كرّ الزمان ولا تغلب الدول والشعوب. واستطاع العرب
وحدّهم بعبقريتهم العجيبة أن ينشروا رسالتهم في وادي النيل،
فتفاعلت قوى هذه الرسالة التي بشر بها محمد بن عبد الله، خلفت
مصر العربية بلغتها ودينها وخصائصها وكل مقوماتها الشخصية.

هذا حق لا ريب فيه . أمّا أن يتعلل بعض الكتاب بأن مصر
لا تزال فرعونية الخصائص ، ولا تزال العادات المصرية القديمة
باقية إلى الآن ، فهو ضرب من هواجس الأثريين . ومن أطرف
ما قرأته لبعضهم حول هذا الموضوع قوله : إن الطفل المصريّ
حينما تسقط سنّ من أسنانه المخلوعة يطلب إلى الشمس — كما
يطلب الطفل المصريّ في عهد الفراعنة — أن تبدلها له بسنّ
أحسن منها ، وأن تأخذ منه «سنّ الحمار» وتبدلها «بسّن غزال» —
والشمس كما لا يخفى من أعظم المعبودات المصرية منذ أقدم العصور
التاريخية — ويقول في معرض الاستدلال على فكرته هذه إن بقايا
هذه العبادة لا تزال آثارها في مصر إلى اليوم . ولكن ما قول
الأستاذ الأثريّ الذي أورد هذه القصة وغيرها من القصص
المشابهة لها في أن عادة ابتهاال الطفل إلى الشمس بأن تبدل سنه بسن
أخرى لا تزال موجودة في سورية حتى يومنا هذا ، وربما كانت
موجودة في العراق أيضاً ، وأنها تردد بنفس الصيغة التي تردد
في مصر ، مع أنها لا تعدو أن تكون خرافة من الخرافات الشائعة
بين الأمم دون أن يمكن تحديد مصدرها الأصلي ! وبعد ، فلا أدري
لماذا نتمسك بمصرية المتاحف وننكر هذه الحقائق التي أبدعها
العرب والتي وحدت بيننا لغة وعقيدة وميولا ؟ . .

إن السوريّ حين يدافع عن عروبه لا ينكر سوريته ،
وكذلك العراقيّ واللبنانيّ والحجازيّ . وهكذا يجب أن يكون
الحال في مصر ، فإن دفاعها عن العروبة وانتظامها في المجموعة العربية
لا يجردها من « مصريتها » . هذا ما نقوله لإخواننا المصريين .
أما الكلمة التي نريد أن نوجهها إلى إخواننا السوريين والعراقيين
الذين يفسرون « الفرعونية » تفسيراً مغلوطاً فيه ، فهي أن
ارتباط مصر بماضيها واحتفاظها بتراثها القديم ليس معناه تنكرها
للعروبة وتخليها عن لغة القرآن . كلا ! فإن التفكير في هذا الموضوع
هو ضرب من الخيال ، وهو تفسير مغلوط فيه ، وإلى هذا أشار
الأستاذ إسماعيل مظهر بقوله :

« لقد قطعنا صلتنا بمصر القديمة : مصر الأهرام والهيكل
واللغة الهيروغليفيه ، وانبثقت صلتنا بمصر الفارسية والرومانية ، وعقدنا
أواصر العلاقة بمصر العربية الشرقية . مصر المساجد والزوايا والمآذن ،
والثقافة العربية على جملة من القول . فلسنا نعرف اليوم « آمون »
ولا « رع » ولا « هوروس » ولا « إيزيس » بل نعرف « الله
الواحد الأحد » ونعرف « كتابه المنزل ، على نبيه المرسل » ولسنا
نعرف الخط المسماري ولا اللغة القديمة ، بل نعرف الحروف الهجائية
واللغة العربية وآداب اللغة العربية ، فنحن في أغوار من المدنية

العربية لن يمكن أن تخلص منها أو أن ندعى حقاً أو باطلاً أن في
مستطاعنا أن نغرس بذور ثقافة أو حضارة مصرية بجثة تقطع
صلتنا بهذه الحضارة ، اللهم إلا بمعجزة كمعجزة العرب في تعريب
الأمم التي غزتها في ثمانين عاماً من عمر الدنيا الطويل .
وأوضح الدكتور طه حسين رأيه الصريح حول هذا
الموضوع فقال :

« .. فليكن رأيي في ذلك واضحاً جليلاً أيضاً ، وهو فيما أعتقد
رأي المصريين جميعاً لا يختلفون فيه ، فمصر حريصة على تاريخها
كله ، لا تنزل منه عن قليل أو كثير . وهي إذا حرصت على
تاريخها الفرعوني لا تريد أن تعود إلى دين الفراعنة ، فهذا
سخف . ولا تريد أن تتكلم اللغة المصرية القديمة مكان اللغة
العربية ، فهذا سخف أيضاً . ولا تريد أن تصطنع الحكم الفرعوني
مكان نظمها الديموقراطية الحديثة ، فهذا سخف أيضاً . وإنما تريد
أن تنظر إلى هذا التاريخ بما كان فيه من خير وشر على أنه جزء
من حياتها ، ومقوم لوحدها ، ومكوّن لوطنيتها ، تفخر بما
يدعو منه إلى الفخر ، وتألّم بما يدعو منه إلى الألم ، وتعتبر بما
يشير منه العبرة ، وتنتفع بما يمكن أن يكون مصدراً للنفع ،
وتحيي منه ما كان صالحاً ومستطيعاً للحياة » .

وبعد ، فنحسب أن « الفكرة الفرعونية » أصبحت من
الجلاء بحيث لا تحتاج إلى إيضاح أكثر من هذا ، ولا تحتاج
إلى أن يتخوف السوريون والعراقيون من خطرهما كلما تحدث
المصريون عن تاريخهم القديم. كما أن « الفكرة العربية » أصبحت
من الواضوح بحيث يجب ألا يتخوفها المصري ، وبذلك نخرج من
هذه المقدمات إلى أن مصر لن تكون بعيدة عن فكرة « الوحدة
العربية » التي يعمل على خلقها ساسة العرب وكتابهم . ومن
يدري ؟ فقد تزعم مصر على هذه الحركة السياسية الجديدة ، إن
لم يكن اليوم فعداً ، وقد يحقق الملك الشاب البرنامج الخطير الذي
رسم خطوطه الأولى قبل قرن جدّه العظيم مؤسس مصر الحديثة .
وما ذلك بالأمر الخطير ، ولا سيما بعد هذه الظواهر العربية التي
لمعت أشعتها في جوّ مصر ولا تزال تلمع إلى الآن .

موقف الشباب من النزعات التجديدية

« لا تتعصبوا للقديم فينسيكم فضل الجديد ، ولا
تتعصبوا للجديد فتأخذوه بترابه وتبره وأنتم تحسبون
ترابه تبراً ! فإذا دعوناكم إلى اقتباس بعض النظم
الغريبة التي يضطرننا إليها تنازع البقاء ولا تنافي جمال
ماضيها ، فذلك لأننا نريد أن نسلحكم بسلاح تفقون به
أقوياء بجانب القوى . مرحباً بالجديد إذا كان لنا
فيه عزة ومنعة وقوة . وسحقاً لهذا الجديد إذا
ضيع علينا ميراث الآباء من كرم وحياء ومروءة
وصدق وإيمان بالله »

منصور فهمي

ما موقف شباب العرب من النزعات التجديدية ؟
قبل الجواب عن ذلك نتساءل : ما القديم ؟ وما الجديد ؟
وهل ثمة جواب صريح يمكن أن يطوى هذين السؤالين
بكلمة حاسمة ؟

نريد أن نقول : « لا » ، وفي وسعنا أن نقول « نعم » .
ومن الخير أن تخطي الاستطرادات لنترك لظواهر الأحداث أن
تجيبنا عنه جواباً بليغاً .

ولنأخذ أقرب الأمثلة للتدليل على ظواهر هذا النضال ،
ولتكن أمثلتنا من جوانب التاريخ ، ومن هذه الملابس
التي أعقبت الحرب الكبرى . . . فمنذ عشر سنوات أو أكثر (١) . .
أى منذ انطوت صفحة الحرب الكبرى بحسناتها وسيئاتها ،
رأينا في العالم كله ، لا في الشرق فقط ، تغيراً محسوساً في شكل
الحياة ، وميول الجماعات . . وكأنما هذا « الاتزان » الذي كان
يسود العالم في سائر بيئاته قد اختلت حركته بعض الخلل . .
ولا نقول إنه انقلب إلى « الفوضى » بل نقول إن الخصائص
الخلقية التي كانت كمينة في النفوس إلى حد ما قد انطلقت في آفاقٍ
غير محدودة تتمتع بفيض الحرية ونعيمها المزدهر . .

وهذا التحرر بل هذا الانطلاق الذي هضمته بعض الأمم
أو كادت ، ووقف شجى في حلوق بعضها ، فأقعدتها عن السير

(١) كتبت هذه الخواطر سنة ١٩٣٣ ، وقد أقيمت على حالها ، مع تعديل
طفيف ، لأنها تصور الحالة الفكرية خلال هذه الفترة التي سبقت الحرب العالمية
الحالية تصويراً قريباً من الواقع

والتقدم — هو الذى يميز بين أمة وأمة . . وبديهي أن يعتبر
الشعب الوهن الضعيف الذى لا يقوى على السير ، ولا تهضم
معدته التطور ، ولا يستطيع أن يجارى عصر السرعة فى كل
اتجاهاته — بديهي أن يعتبر شعباً « قديم » النزعة بالنسبة إلى
الذى ارتضى « التطور » وجعل الوثب ديدنه فى كل شيء . .
ومن هنا نستطيع أن نتلمس الفروق بين « القديم »
و « الجديد » ، وبين أمة وكلة ضعيفة تريد أن تكون محافظةً فى
كل شيء . . وأمة يقظة نشيطة تريد أن تجدد كل شيء يمسُّ
مظاهر الحياة . .

ويحدثنا التاريخ أن نهضة كل أمة قصة طويلة تنطوى
فصولها على فترات تكون فيها محافظة ، ثم تضطر بحكم امتزاجها
بغيرها من الأمم أن تشور باتِّئاد على بعض عاداتها ، وأن تجدد
مضطرة بعض هذه العادات التى تعوق سير تقدمها . . وما تزال
حتى تتلمس النور على وضوح من النهج القويم .

وبمهلة قصيرة عند هذا العراك الذى قام بين العقائد والديانات
قبل ألقى سنة مثلاً تبدو لنا ألوان حية من الخصومة بين القديم
والجديد . . كان العالم القديم يعيش على ديانات من صميم الأساطير
فلما ظهرت اليهودية وأعقبها النصرانية قام الناس يحاربونها بكل

ما لديهم من قوة . . . » لقد كانت اليهودية رسالة جديدة بالنسبة إلى طبيعة الديانات الوثنية القديمة . . . وجاءت النصرانية بعدها، فكانت أشدّ مخالفة من اليهودية لطبيعة الوثنية ولطبيعة السياسة التي كانت تقضي على الشعب أن يعتبر السلطان خليفة الله في أرضه . ومرت فترة من فترات التاريخ قام بعدها النبي الكريم محمد بدعوته، وإذ قام بدعوته الواضحة ورسالته العليا نبذه قومه وحاربه المشركون، ورأوا في الإجابة إلى دين الله خروجاً على القديم وكرهية لأن يعبدوا ما لم يكن يعبدونه أبائهم .

هذه أمثلة واضحة يذكرها كل إنسان اطلع اطلاعاً عارضاً على تاريخ الديانات ونشأة العقائد ، وقد مررنا بها مروراً سريعاً ، وفي وسعنا القول بأن هذه الأمثلة قد تجددت على تعاقب الأجيال . . ولا يتسع المجال لنروي عشرات الأمثلة على هذه النزعات التي تنبثق في كل عصر من أعماق فئمة من المفكرين الأحرار يعملون على تحرير أمتهم . نعم ؛ في مثل هذه الحالات نسمع صيحات الأحرار المجددين الذين يعملون على إيقاظ الشعور وتنبية الخاملين ، لكيلا تصبح الأمة طعمة أمة غيرها في كل مظهر من مظاهر الحياة . ولقد انبثقت روح التجديد في الأمة العربية منذ نصف جيل أو أكثر، حين ارتفعت أصوات الأحرار بالثورة على الظلم ،

وبفهم روح الإسلام على حقيقته وتخريج مذاهبه بما يلائم روح
هذا العصر في تطوراتهِ ونزعاتهِ الحرّة .

هنا ثار الأقدمون من رجالات الحكم في ذلك الدور المظلم ،
وأخذوا يصورون هؤلاء الأحرار للدهماء بأنهم آلات هدم
وتخريب في كيان الدولة وفي أسس الإسلام

كان صوت الحرية يرفعهم رعباً شديداً ، لأنه ثورة منظمة
على أسس الظلم وعلى هذا الغنم الكبير الذي يستأثر به أفراد في
سبيل لذاذاتهم المنكرة . . وثورة التجديد اليوم هي ثورة الحرية
بالأمس . كانت ثورة الأمس على الظلم والاستبداد ، فأصبحت
ثورة اليوم عليهما وعلى الجهالات والتقاليد ، وعلى الذل والاستكانة
والخنوع ، وعلى كل ما يغفل الفكر ويضعه في سلسلة محكمة من
الأصفاد ، والذين يحاربون التجديد وأريد الذين يحاربونه باسم
الدين أحياناً ، يحاربون هذه الروح القوية التي تريد أن تنزع عن
الشرق الكثير مما علق بنفس أبنائه وبكيان جماعاته من خمول
العهد الماضي وذله المكين ! .

ونستطيع أن نخرج من هذا التدليل على أن عناصر التجديد
تقوم في كل نهضة حية على المبادئ الآتية :

ثورة العلم على الجهل
ثورة الحرية على الظلم
ثورة الحركة على الجمود
ثورة النظام على الفوضى
ثورة السيادة على العبودية
ثورة الإيمان على الوثنية
ثورة الهدى على الضلال

وبالتالى انقضاء عهدٍ مظلمٍ آسنٍ ، وانبثاق فجر جديد لامع
فى حياة الأمة وتطورها .

واستفاق الشرق على هذه المبادئ القويمة ، ولا سيما بعد
الحرب الكبرى ، ورأى أن عزله وانزواءه وعدم احتكاكه
بالغرب وعدم أخذه بمبادئ الحضارة الراهنة ، مما يضعف كيانه
ويجعله ذليلاً مستكيناً بل مستعبداً للغرب فى جميع مظاهره
السياسية والاجتماعية والأدبية . ووقف قاده ودعاة الإصلاح فيه
يبحثون هذا الامتزاج ، وهل هو يضر الشرق أو يفيدده ؟ هل تقتصر
على خصائصنا القومية وهذه القوى الكمينية فى نفوسنا ؟ أو علينا ،
مع احتفاظنا بهذه الخصائص ، أن نأخذ أساليب الغرب وأساليب
كل أمة قد التمت هذه الحياة الجديدة التى نلتمسها نحن ؟

وانتهى بهم الأمر إلى أن ليس في اتخاذ أساليب الغرب
ما يعوق نهوضنا أو يعمس خصائصنا القومية، بل الأمر بالعكس،
فقد ظهر لهم أن تلك الأساليب هي الأسس الصحيحة التي يجب
أن تركز عليها نهضتنا، ومشى الشرق بروحه القوية ونزعاته
الحرّة على منهج الغرب، وكان من أثر ذلك أن اصطدمت بعض
البيئات الشرقية بل أكثرها بأعداء الإصلاح وبهذه الجموع
الكثيفة — جموع الجهالات وعناصر الرجعية — تحركها يد
السياسة على الأكثر، لتضرب رجالات الإصلاح الذين يحاولون
أن ينقذوا الشرق مما هو فيه، ليكون سيّد نفسه وليستعيد مكانته
السامية التي كانت له في ماضيات أيامه.

ولا يزال الصراع قوياً بين الفئات المجددة وبين الرجعيين :
الشباب المفكر في جبهة، والمتزمتون وبقية العناصر الجاهلة
في جبهة أخرى.

والنزعات التجديدية التي تغمر الشرق العربي في يومنا هذا،
والتي يحمل الشباب ألويتها... هي دعوة صريحة ورسالة واضحة
لا غموض فيها ولا التواء...

ينادي الشباب أن دعوتنا قائمة على هضم حضارة الغرب

لفهم حضارة الشرق .. وإنا إذ نحاول هضم هذه الحضارة
لا نلتمس قشورها بل لبابها ، ولا يهمننا عَرْضُها بل جوهرها ،
ومعنى هضم لباب هذه الحضارة التي تعبت أقوى الأدمغة في
خلقها والتي هي عصارة الحضارات القديمة — معنى ذلك انتصارنا
في ميدان الحياة واستعادة هذا الماضي الذهبي ، وبعث مخلفات السلف
المطمورة تحت ركام من سجون الجهالات وظلمات التقاليد
الكثيفة .. ومن الغريب أن ترتفع إزاء هذه الصيحات المخلصة
صيحات منكرة تنادى بأن هذه المحاولات ليست إلا نتيجة
حتمية لانحيار صرح الأخلاق وتزعزع العقائد وتلاشى خصائص
الشرق في إباحية الغرب ! ..

وكأنما طابع هذه النزعات التجديدية التي تواجهنا
ونواجهها ، والتي يخاف مظاهرها أكثرنا ويعبّ من رحيقها
بعضنا ، كأنما هذه النزعات لغز مبهم غير واضح الجوانب ، حتى
لنرى الكثيرين من ضيق الفكر يفترضون في أمرها افتراضات
سلبية ، فينظرون إلى ما تفيضه من نعيم كأنه رجس من عمل
الشیطان . فيبتعدون عنها ويدخلهم الريب في ظواهرها وخفاياها ،
ويأسون هذا اليأس القاتم الذي يطبع على جموعهم سمات الموت
فيلبسون ثوب الحياة وما هم بأحياء ! .

لا سبيل إلى نهوض الشرق قبل ازدراد حضارة الغرب
وهضمها هضمًا جيدًا .

هذه هي رسالة الشباب التي يخافها جموع الرجعيين الذين
ينكرون مبدأ الحياة ويقنعون بخيالات العصور الوسطى !

وتشتد ثورة النضال بين هاتين الفكرتين ، بل قد اشتدت
وطغت .. ولكن لمن الغلبة ؟ لا شك أنها للشباب المؤمنين
برسالة الحياة . لأنهم إذ يقدرّون نزعات العصر وخصائص
التطور واتجاهات الرقي والنهوض ، يعملون في سبيل تحرير الشرق
من عبوديته لينعم بحريته المفقودة . وهذا الذي يدعونا أن نشد
أزر هذه العناصر في كل محاولة يقومون بها ما دامت منبثقة من
صميم الحق ، ولا يقصد منها غير تحرير الشرق سياسيًا
واقتصاديًا .. وإذ يصل الشرق العربي إلى هذه المرحلة ستنتج
إليه البشرية لتري أي دور سيلعبه على مسرح الكون ؟ هل
تكون حضارته حضارة المستقبل التي ستنقذ العالم مما فيه من آلام
وأوجاع ، وما يشكوه من صراع إثر صراع ؟ . أي هل يتاح
له تجديد تلك الرسائل التي غمرت البشرية قبل آلاف السنين
حينما قام الرسل بدعواتهم لتضميد جراحات البشرية الدامية ؟
وإذ يصل إلى هذه الساعة الحاسمة من تاريخه الحديث ، هل يعد

يده إلى الغرب مصافحاً ليتعاونوا على إسعاد الكون ؟ وأخيراً هل
بالتماع نجم الشرق مرة ثانية وازدهار حضارته تنهار حضارة الغرب
وتتلاشى على صخرة هذا التفسخ الخلقى الذى يشير إليه بعض
فلاسفة الغرب منذ أعوام غير قليلة^(١).

أسئلة تمرّ بالخطير وليس لأحد أن يتكهّن بأجوبتها تكهنًا
حتميًا . وليكن مصيرها فى ضمير الغيب ، ولكن أما ونحن أمام
تطور كبير فى كل ظواهر الحياة ، أما ونحن أمام تطوّر حتى
فى ذهنية الغرب ووجهة نظره إلى الشرق ، أما ونحن إزاء هذا
التطور المحسوس أفليس الواجب يقضى علينا أن نوجّه سيرنا فى
الطريق التى سلكها غيرنا من الأمم لنبلغ أسمى أمانينا وتخلص
من الأصفاد المحيطة بنا ؟

كان الشرق إلى عهد غير بعيد مجهولاً من الغرب ، كان
ينظر إليه نظر العملاق إلى القزم ، ونظر الرجل المفتول العضلات
إلى دمية صغيرة . . بل كانت نظرة الغربى إلى الشرقى نظرة مَنْ
بلغ أعلى طبقة فى السماء إلى أناس يضربون فى الطبقة الدنيا من
الأرض . وقد تكون هذه النظرة الضيقة هى التى أوجت إلى

(١) يعتقد ماكس نورداو أن المدنية الأوربية قد وصلت إلى المرحلة الأخيرة

التي يصيبها الانحلال ويتلوها الهدم والفناء

شاعر الامبراطورية كيبلنك أن يرسل كلمته التي رددتها الآفاق :
« الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا »

ومرت أيام وامتزج الغرب بالشرق ، درس نفسيته ونفذ إلى
أعماقه ، عرف بعض ما يخفى وما يظهر ، ما يكنّ وما يضمّر ، فاذا
بالنظرة تتحول من ازدراء الشيء إلى احترامه بمقدار ، ومن محاولة
ابتلاعه إلى الحذر منه والخوف من يقظته ! وإذا بنا نسمع أصواتاً
تخالف ذلك الصوت كل المخالفة . وإذا بروح الأديب تتعالى على
روح الشاعر . . وإذا بنا نسمع الأديب البلجيكي ميتزلنك يقول
إن الشرق والغرب أشبه بفصيين من فصوص الدماغ :

الواحد مركز العقل والعلم والوجدان
والآخر مركز الروح والدين والعقل الباطن
الواحد يبحث فيما يستطيع أن يحد ويفهم
والآخر في غير المحدود وغير المعلوم

وهنا يصرخ هذا الأديب العميق : « لقد حاولنا غير مرة أن
يتداخلنا وأن يعملنا معاً . ولكن الفص الغربي شلّ مساعى الآخر
ومحاثره . ولقد آن الأوان لتجديد الفص الشرقي المشلول » .

وإذ نسمع هذا الصوت نرى فئة من أعلام التفكير الغربي
تشك في قيمة الحضارة الآلية وترى « أن المدنية الصناعية كانت

مهذاً قوياً لغلّ الإرادة الانسانية وتضييق دائرة الخيال المخترع
لأنها تزج الإنسان في سلك النظام الآلى ، وتحول جهوده ونشاطه
إلى شرّ عادات وغرائز ، وتسقط إنسانيته الحرة المريدة المطلقة إلى
درك الحيوانية المحكومة بغرائزها وعاداتها وظروفها « وترى هذه
الفئة أن الغرب اليوم يئن تحت أثقال هذه المادية التي تشوب
جمال حضارته ، وتظهره كمن يعيش في مغارة مظلمة مسدودة
النوافذ يشكو هذا الضيق من مشكلاته السياسية والاقتصادية —
هذه المشكلات التي هزته هزاً عنيفاً ؛ وإذا بنا نسمع أوسوالد شبنكر
يدوى صوته في قلب أوربا دويّاً مرعباً ، وإذا به يرى أن مقارنة
الحضارات بعضها ببعض قد دلّته على أن الحضارة الغربية قد
بلغت سن الشيخوخة . . وأن ساعة القضاء حتمت ودقت — ذلك
القضاء المبرم الذي يعتبر من الجهل أن يعصى . . وإذا يصف
التاريخ بأنه قيام المدينيات وسقوطها في أدوار تكاد تعين بالدقة
يقول : إن مدينتنا — أى المدينة الغربية — تدنو من نهايتها^(١) »

(١) استطلعت إحدى المجلات السويسرية رأى بعض كبار كتاب الغرب في
مستقبل أوربا ومصير حضارتها ، فأدلى أندره جيد الكاتب الافرنسى بمطالعات
سديدة عن مستقبل الشرق وموقف الغرب انتهى إلى أنه يعتقد أننا نرى في هذا
العصر خاتمة دنيا ونهاية ثقافة واحتضار حضارة ، وقد ألمع برأيه هذا إلى
مصير الغرب !

ولم يقف الاتجاه الغربى عند هذا الحد ، بل رأيناه يزداد
 إمعاناً فى بحث هذه المشكلات التى تواجهه وتحيط به وتتصل به
 اتصالاً من بعيد ، ورأيناه يتطلع إلى آفاق غير هذه الآفاق المملوءة
 بالسحب والأنواء والعواصف . وإذا بنا نسمع برتراند رسل
 الفيلسوف المعاصر يصرخ : « إن أوروبا تحتاج إلى حضارة جديدة
 أو حضارة تختلف كل الاختلاف عن حضارتها الحالية » (١) .
 فما لون هذه الحضارة ؟ أحضارة الشرق هى أم حضارة ممزوجة من
 مادىة الغرب وروحىة الشرق معاً ؟



إزاء هذه الاتجاهات التى يتجه إليها أكابر مفكرى الغرب
 بعد أن كانت أوروبا تنظر إلى الشرق بعيون كبلنك وتفكيره المحدود .
 إزاء هذا التبدل الذى أملته يقظة الشرق فى السنوات التى تلت
 الحرب الكبرى ، أليس لنا أن نعرف أين يكون موقفنا فى هذه

(١) برتراند رسل فيلسوف من كبار مفكرى الانكليز ، نشر حديثاً كتاباً
 أودع فيه آراءه فى المدنية والاجتماع . ومما يقترحه دواءٌ لهذا المجتمع تقويض دعائم
 العمران الحاضر وتشديد صرح الاجتماع على أسس جديدة ! وفى اعتقاده أن ذلك إذا
 تم زالت كل دولة تقوم مثلها على العصبية القومية وزالت جميع النظم العلمية والأدبية
 والاجتماعية والاقتصادية وحلت محلها نظم أقرب إلى سعادة الانسان وهنائه ، لأنها
 لا تقوم على أساس العصبية الجنسية ، بل على مبدأ تأخى البشر واعتبارهم جميعاً
 أمة واحدة ذات مصالح مشتركة لا تدعو إلى التناوب والتخاصم .

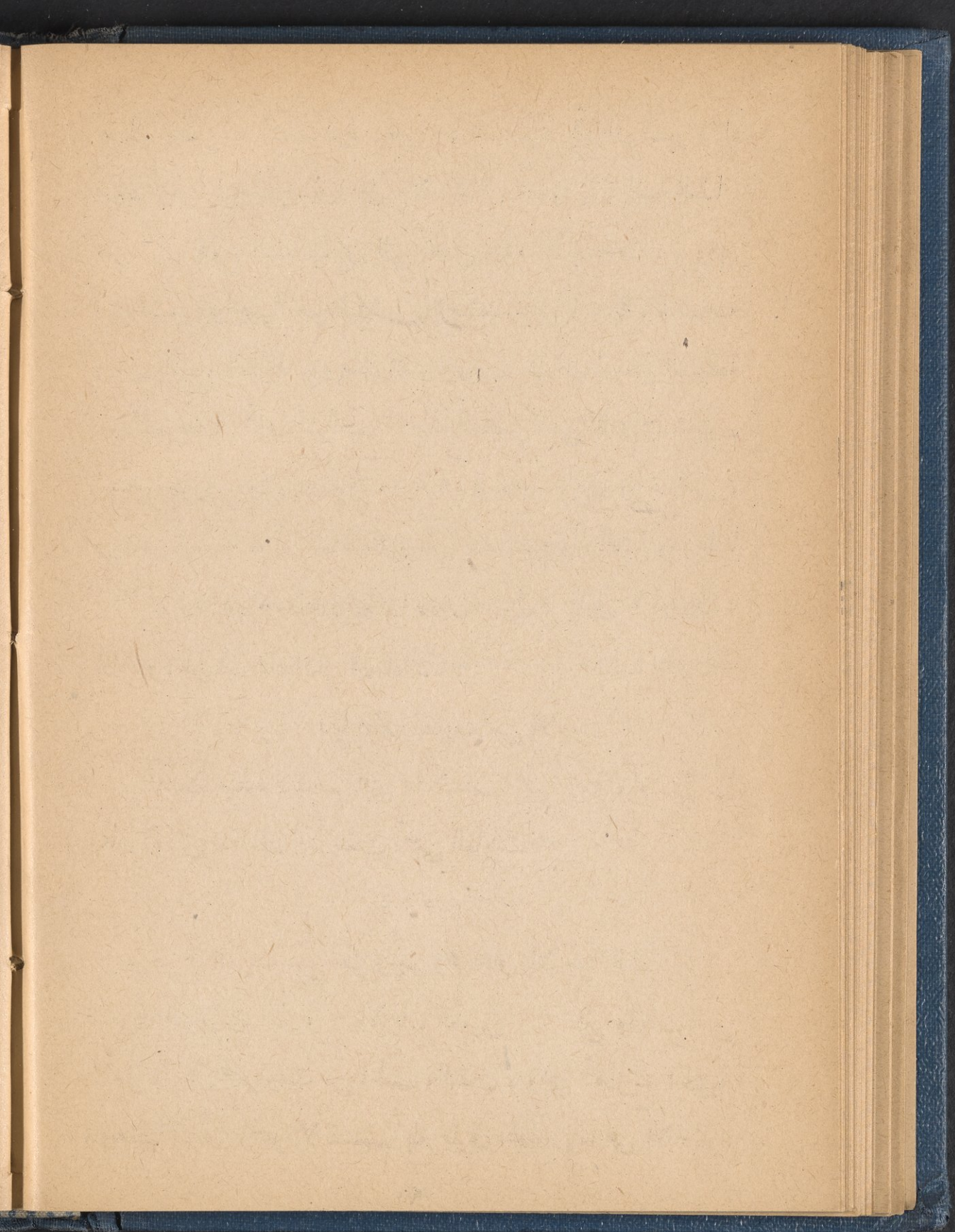
الرقعة الكونية ؟ وإلى أى هدف يجب أن تتجه أنظارنا ؟
أو ليس من الواجب أن نأخذ للأمر عدته ، وأن ننزع عن عقول
أكثرنا هذه الجهالات التى تغلف موضع التفكير منا ؟

قد يكون أمام الشرق حمل وقر هذه الرسالة العليا التى
تنتظرها البشرية ، وينتظرها الشرق والغرب معاً . فهل فى وسع
أبنائه أن يحملوا هذا الوقر الكبير قبل أن يأخذوا للأمر عدته ،
وقبل أن تنضج شعوبه على هدى العلم اليقيني ، وضوء الإيمان
بحرية الفكر ؟ . نعم ، إن أولى واجباتنا أن تقوى كل ذرة تنبض
فى مجموعة الدورة الدموية من كياناتنا الاجتماعى . . وإذ تقوى فينا
هذه العناصر على أسس التفكير الغربى ، نعود إلى مجموع حضارتنا
القديمة نستخلص منها أصفى ما فيها من كنوز لنجتاز مراحل
الفلسفة الغيبية إلى الفلسفة الواقعية التى تواجه الحياة وترزها بعميار
الواقع . وعندئذ نطل من كوتتنا الضيقة ، من شرقنا الواسع
ذى الخصائص المشرقة ، لنلعب الدور الكبير فى تاريخ البشرية .

ولكن متى نصل إلى هذا الدور ؟

قد يكون أمامنا عشرات السنين ومئاتها ، وليست مئات
السنين شيئاً يذكر فى عمر الشعوب ، بله فى عمر البشرية . .
إذن فما دمننا قد رسمنا الطريق . . وما دامت زمر الشباب هى التى

تخطو خطواتها التجديدية الجريئة ، فما علينا إلا أن نسير وراء
هذه الزمر الحية غير مترددين ولا وجلين لنصل إلى القمة العليا .
نعم ، إن جموع الشباب هي التي تحس بهذه الاتجاهات . . وهي
التي تشعر بواجبها نحو المستقبل ، وتستعدّ لحمل الرسالة ، للتضحية
وبذل المهج العالية . وهذا الذي يهيب بنا أن نرسل الصيحة
تلو الصيحة في أذن الشباب — هذا العنصر الحي الذي يستجيب
لنداء الحرية ، وللنزعات التجديدية ، فيندفع بإيمان وإخلاص ،
ويشعر شعوراً قوياً بأن لكل عصر خصائصه وألوانه . وما علينا
إلا أن نردّد خصائص هذا العصر ، لكيلا نظلّ « غيبين »
في عصر ترتكز حضارته على « الواقعية » ، وأن نتجه إلى تطورات
المستقبل لا إلى خيالات الماضي .



إيمان

« نحن نريد أن ننشئ جيلاً جديداً يفهم واجبه
ويعمل للمستقبل كما عمل الأجداد »

الملك فيصل

آمنتُ بالفكر قوة أزلية لها مقامها السامق المشع .
وبالحرية هناةً من الهنات .
وبالحب ينبوعاً عذباً يطهر القلوب من الأدران .
آمنتُ بهذه العناصر التي ما هدفت إليها أمة وآمنتُ بها
إيمان الواثق المطمئن إلا بلغت أسمى الغايات .

خرج العرب من جزيرتهم وهم خلو إلا من الشوق . . .
الشوق الشعري الممزوج بالإيمان العميق . . . ففي واحاتٍ من
الأمّل ، وفي صحراوات من الحب واليقين ، وعلى أهازيج الحرية
ووهجها الدامي رسموا لأنفسهم أبلغ طرق المجد . وما هي إلا غفوة

من غفوات الكون حتى خلقوا بمعجزة كبرى إمبراطورية مترامية
الأطراف ، ومدنية فذة عاشت وستعيش مدى الأزمان .

كم يعوز العرب في يقظتهم هذه إيمان أسلافهم الأولين ،
ذلك الإيمان « الخام » ، البدائي ، غير المصقول بسنا العلم وبريق
الحضارات .

يعيش الانسان في أغوار ماضيه أكثر مما يعيش في صميم
حاضره .. ولكن هل علمت أيها العائش في متع الأحلام أن
الذي يعيش في أغوار الماضى الآسن المنقبض المتخاذل يظل
آسناً منقبضاً متخاذلاً ؟

إن الماضى قوة خفية لإبداع مستقبل أجمل وأبداع أكثر
حيوية من الحاضر اليقظ ، ولكن كيف نستغل ماضينا الخالق
المبدع ذا الدفقات المشعة في شتى ميادين الفكر ؟
هنا السر !

إن تمسكنا بمجد ماضينا لا ينبغي أن يصرفنا عن حاضرنا
المتفاعل . أمّا إذا آثرنا الغيبات المعتمدة على اليقين المشرق فكأننا

أشباه أموات من الأحياء . أو إذا أردنا الدقة ، فأشباه تماثيل كائية
بدون حراك على حين يسير العالم إلى الأمام بمثل السرعة التي
تنطلق فيها الأسهم من فم « الصواريخ » !

ما هي رسالة العربي في هذا العصر ؟
رسالته : الخلق والإبداع — خلق كيانه المفقود
توطئة للإبداع .

وليستطيع أن يعمل ما عمله العرب الأقدمون في تاريخ
الفكر الإنساني ، عليه :
أولاً : أن يطرح « وثنيات عصور الانحطاط » التي طغت
على تفكيره فترة ركوده ، والتي كادت تفقده شخصيته ، وترده
إلى أغوار الظلمات .

ثانياً : يجب أن تقوم عناصر هذه الرسالة على البعث القومي ،
وإحياء الثقافة العربية القديمة إحياءً علمياً ينقيها من الغيبات .
فقد تكون « الغيبة » مفيدة لعصر ما وليئة ما . أما فائدتها
للعرب في هذا العصر فأمر مشكوك فيه . وعلى هذا واجب
العربي أن يرتدى من ماضيه الثوب النقي فقط — ذلك الثوب
البديع الذي نسجه بفيض من هيامه وشوقه ، من إلهامه وإيمانه ،

فجاء ثوباً غير مبهرج بالزخارف والألوان ، أجمل ما فيه دقة صنعه
وبساطته ، ثوباً نقيّاً رائعاً ، اشتهى أن يلبسه كثير من الشعوب
— والحضارة ثوب قد يصلح لباساً لكل أمة فيها نزعات الحياة —
فلبسوه معجبين مزهوّين في حقبة غير قليلة من خاليات القرون .
نعم ، واجب العربي اليوم أن يحى تراثه القديم الضخم ، وأن يعبّ
ما استطاع من سلافة هذا العصر ، وأن يخلق من هذا الامتزاج
رسالة إنسانية جديدة ، لا لقومٍ دون قوم ، بل للبشرية بمختلف
أجناسها ، أو بكلمة أعم للعالم أجمع .

وبعد . . أفتتاح للعرب أن يمثلوا دورهم في تاريخ البشرية
مرة ثانية ؟ أم جفّ معين حيويّتهم ، وخبا فيض إشرافهم ؟
والأمم كالأفراد كما يقول علماء الاجتماع ، تمرّ بما يمرّ به
كل كائن حي : ولادة ، طفولة ، فشياب ، فكهولة ،
فشيخوخة ، فموت ؟ . .

ونتساءل قبل أن نرسم خطوط هذا الجواب : هل مرّت
الأمة العربية بهذه الأدوار ، أو بالفصل الأخير من رواية هذه
الفكرة التي تبدأ بالولادة فالحياة ، وتختتم بالمأساة بالموت والعدم ؟ .
الواقع ، أن شمس الأمة العربية — شمس حياتها الزاخرة بعناصر

القوة والحيوية والشباب ، قد كادت تغرب ، وبالفعل قد دبّ
فيها الهرم ، ووقفت طويلاً عند عتبة الشيخوخة تصارع الفناء
بحيوية عجيبة وبقوة مَنْ لا يريد أن يموت ، ومرّت بها
قرون وهي واقفة بدون حراك ، حتى إذا كشر الموت عن ناييه
الأزرقين الحادّين يريد أن يزدردّها لقمة سائغة ويطرحها في لجج
العدم ، استحالّت هذه الشيخوخة المتهدّمة وهجاً من نور ونار ،
ووخزات حادة من شوك وقتاد ، فلم يستطع ذلك الغول أن يطويها
كما طوى غيرها من الأمم ، وكأنّما هذه المداعبات المؤلمة أو
الهزات المرعبة قد أيقظتها بقوة فانفلتت من غمرات السنين
وأحداث القرون طفلة جديدة ، تحبو وتلعب ، تقفز وتمرّ ،
وقد تبكى وتصرخ كأنّ بها جنّة ، وكيف لا تجنّ فرحاً وقد
لبست ثوباً جديداً من الحياة ؟ وما هي إلا يقظات من عمر الزمن
حتى استقوت ، وهي الآن في جدة الشباب تحاول أن تخطّ في
تاريخ الفكر العربي للمرة الثانية ، صفحات جديدة أشدّ وهجاً
وأبهر سنا من صفحتها الأولى .

ومن يخامر الشك في قيمة هذه الوثبة المنتظرة فما عليه إلا أن
يقرأ تاريخ العرب بكثير من الإمعان ، فهم منذ القديم أصحاب
معجزات . والله وحده يعلم ما يلبده الغد من أعاجيب .

شيء واحد يعوزنا للوصول إلى أهدافنا السامية :

الإيمان

الإيمان بقدسية الفكر

الإيمان بقدسية الحب

الإيمان بقدسية الحرية

وهذا الذي دفع العرب من جزيرتهم الجرداء القاحلة

لينشروا رسالتهم السامية على الدنيا .

وهذا الذي يعوزنا في نهضتنا هذه ، وفي عصرنا هذا .

يطلب من مكتبة العرب

لصاحبها الشيخ يوسف البستاني

٤٧ الفجالة مصر

I 14587592

B 12949905

DS
39
K3x
1943

الكيالى ، سامى
الفكر العربى

NAME	STATUS
Eusef Gaddah	staff
SEP 3 1979	
Iman Kallas	78/841

APR - 1976

DS
39
K3x
1943





